

مجلة البيان - العدد ٥ شعبان ١٤٠٧ هـ أبريل ١٩٨٧ م

الافتتاحية

انج سعد ، فقد هلك سعيد..!

الذل: الهوان الذي يلحق الفرد أو الجماعة، ونقىضه العز. وإذا أردنا أن نحل هذا ونبحث عن أسبابه وطبيعته ، نجد - أولاً - أنه حالة نفسية تعتري الفرد نتيجة لعوامل متعددة تحيط به. فمن طبع النفس الإنسانية حب الحياة ، والتشبث بها ، والإخلاص إلى نعيمها ، والركون إلى شهواتها. ومن طبعها أيضاً أن تعيش لهدف سام، تعمل على تحقيقه، ولا تبالى المصاعب التي تعترضها من أجل ذلك. وعند هذا المفترق يتمايز الناس ، فمنهم من يفضل أن يهين جسمه ، ويتحمل المصاعب ، ولو أدى به ذلك إلى الحرمان من الحياة أو الحرية ، في سبيل أن تبقى القضية - التي نذر لها نفسه - حية ، ومنهم من يؤثر السلامة ، وتغلبه ضرورات الحياة ، ولو أدى به ذلك أن تداس كرامته ، وتسحق تطلعاته ، في سبيل أن يبقى على قيد الحياة ، متمتعاً بمستوى معيشي معين. فها هنا موقفان ، كل منهما يعبر عن فهم خاص للحياة ، ويتخذ الموقف الملائم الذي يتفق وهذا الفهم ، وقد عبر المتتبّي عن هذا المعنى بقوله:

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريراً عليها مستهاماً بها صباً
فحبُّ الجبان النفس أورثه التقى(١) وحب الشجاع النفس أورثه الحربا

وهذا نجد أنفسنا أمام حقيقة: هل الذل موروث أم مكتسب؟
والذي نميل إليه هو أن هذا الخلق - كغيره من الأخلاق - مكتسب عن طريق التربية التي تأتي انعكاساً للظروف الخارجية المحيطة بالإنسان. فإذا استمر هذا الخلق ، يلقنه جيل سابق لجيل لاحق أصبح وكأنه طبع موروث لا حيلة للفكاك منه.

فالذل الاجتماعي - ونعني به: الذل الذي يصيب جماعات وشعوبًا، ويصبح ظاهرة مرئية محسوسة - ينتج عن تراكم حالات فردية تنتهي نهجاً ذليلاً في حياتها، ومن خلال اعتمادها لهذا النمط من العيش ؛ يصبح الذل وكأنه سمة بارزة تشتهر بها ، وذلك عندما تفتقد المثل الأعلى ، والفكرة السامية ، والعقيدة الدافعة، التي تتجمع حولها ، ويشعرها ذلك التجمع بسوء الحال الذي تردد فيه ، فيبعث فيها روح التمرد على هذه الحال ، لتنشط من عقالها ، وتتنقض من الموت الذي خليل إليها - في فترة - أنه حياة ، وما هو - عند التحقيق - إلا حياة خالية من المعنى ، ونعني به: الحياة في ظل الذل والاستكانة.

إن الله سنتنا لا تختلف ، تجري على الأفراد كما تجري على المجتمعات ، وعلى ضوء هذه السنن يمكننا فهم كثير من الحقائق التاريخية التي تكتنف الشعوب والأمم في مسيرتها (٢)، ومن هذه السنن أن الله تعالى - أحياناً كثيرة - يعاقب الناس ويبتلئهم مقابل ذنبهم جراء ما فرطوا ، فيضرب عليهم الذل والسيئة ، ويسلط عليهم ما لم يكونوا يتوقعون ، كل ذلك من أجل أن يرجعوا عن غيّهم ويتوبوا إلى رشدهم ، ويتخلوا عن التقصير، بعد أن ركزوا إلى الأرض واستحبوا القريب العاجل على الخير الآجل.

عوامل الذل:

ما الذي يجعل شخصاً ما، أو شعوباً من الشعوب، ذليلاً؛ خاضعاً، مكسور الشوكة، مهين الجناح؟ لا شك أن وراء ذلك سبباً ، أو أسباباً أدت إليه.

أما الأسباب الذاتية: فهي قابلية وأهلية للخضوع، تكبر مع الزمن، في ظل غلبة الشهوات والانقياد إلى حب الدنيا وما بها من متاع زائل.

إن الأمة عندما تصبح الشهوات فيها هي المتحكم ، وتجعل هدفًا رئيسيًّا لها: "تحقيق الرفاه المادي" ، بأي شكل تحقق هذا الرفاه ؛ تكون قد دخلت طور الانهيار والاضحلال من بابه الواسع. قد تعيش سنوات - تطول أو تقصير - في ظل هذا العبث ، وقد يزدهر اقتصادها ويتضخم إنتاجها ، ويخدعها كل ذلك عن النهاية المحتومة التي ستصرير إليها يوماً ما ، ولكن ريحها ستذهب ، ودولتها ستذوب لا محالة ، بل إن الأمة التي تقشو فيها مثل هذه المفاهيم تصبح العوبة لفئة قليلة تميل بها ذات اليمين وذات الشمال ، وقد وصف الله تعالى في كتابه العزيز هذه الحالة ، ممثلاً في قوم فرعون فقال ، عز وجل: ((فَاسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)) [سورة الزخرف ٥٤].

فأي طاغية لا يبسط سيطرته على الجماهير إلا بعد أن تسقط هذه الجماهير صرعاً للشهوات والمطامع ، وتتمرغ في أحوال الفسق والبعد عن الحق ، وعدم الالتفات إلى هدي الله والتمسك بحلبه ، وتستبدل ميزان الهوى بميزان الإيمان ، أما المؤمنون الذين يبصرون الحقائق بنور الهدایة ، ويزِّنون لأمور بميزان الإيمان ، فمن الصعب -إن لم يكن من المستحيل- الاستخفاف بهم، وتوجيههم الوجهة التي تجعلهم "غشاء كغشاء السيل".

وأما الأسباب الخارجية: فلها ارتباط قوي بالأسباب الذاتية ، ارتباط النتيجة ، بالسبب . فعندما تغفل الأمة عن مقومات وجودها ، يسطو على قيادتها نفر لا يحملون إلا الأهلية التي يتمتع بها الغاصب المتغلب ، ولا يمتازون إلا بما يمتاز به قطاع الطرق ، من الجرأة على سفك الدماء ، وعند ذلك تكمل الدائرة ، وتتوالى حلقات السلسلة التي يجد الأفراد والأمة أنفسهم محاطين بها ، وبعد أن كانت حالة الذل الأولى مجرد قابلية ، يصبح الواقع الجديد للأمة مدرسة منظمة لهذا الخلق الذميم ، فكل الجهود الجماعية للأمة تصبح موجهة لتغرس مفهوم الذل في النفوس.

فالقوانين ، التي تشرع ، والعادات التي تشجع ، والثقافة التي تسود ، والأجهزة والقوى الإعلامية التي ينفق عليها من كدح الأمة وعرقها ، كل ذلك يسير في اتجاه واحد هو تثبيت معاني الذل والخنواع ، وتجريد الأفراد من كل معاني عزة النفس والعرفة ، وضرب وتشويه كل خلق يشير إلى تماسك الشخصية ، والبعد بها عن كل مواطن الطهارة النفسية والجسدية ، والعمل ، ليل نهار ، من أجل اقتلاع أخلاق راسخة حفظت للأمة كيانها ، وأمسكت عليها وجودها ممizaً ، وذلك بالتشكيك تارة ، وبالسخرية من هذه الأخلاق تارة أخرى ، وبالجرأة الواقحة التي يُغالى في الإنفاق عليها ، وإغراق المال والجوائز والألقاب على من يتولون كبرًاها ، في الوقت الذي تهدر فيه الكرامات ، وتداس فيه الحريات ، وتكمُّ فيه أفواه الحق ، وتطلق فيه ألسنة الباطل ، وتنقبض فيه الأيدي عن البذل في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا بقيت - بعد كل هذا - بقية لم يؤثر فيها هذا الإلحاد المتواصل على " غسل مخها " والتخلّي عما تعتقد وتراه ، ووقفت - ما أمكنها ذلك - صابرة مرابطة محتسبة ؛ فهناك علاج من نوع آخر لمن لا تؤثر فيه هذه المؤثرات ، حيث يؤخذ بالشدة والعنف ، ويحارب في رزقه ، وحرrietه ، وسمعته.

فمن الأمور التي عملت على تعميق الذل و "تسويقه" وانتشاره على أوسع مساحة من الناس ، ما يرونه من البطش والجبروت في استخدام الأسلحة المتطورة ، إن كل من تسُول له نفسه أن يفكر - ولو بصمت - بطريقة تخالف منطق الاستبداد والقهر ، فضلاً عن استخدام حقه في التفكير عاليًا ؛ والتعبير بما يبدو له بشكل يتعارض ونية قاهرية ، سيد أماته - آنـى التفت ، وحيثما توجه - لافتة مكتوباً عليها: "انج سعد ، فقد هلك سعيد" (٣).

إن ذل الأمم مقدمة لظهور الفساد بشتى صنوفه وألوانه ، وإن ما يصيّبها من الظلم ، وما تُرْمى به من صنوف البلاء: كالفقر ، وانعدام الأمان ، وهدر الحقوق ، وتسلط الرعاع والسلفة ، و... كل ذلك ليس إلا ابتلاء من الله ، وعقوبة منه على التغريط ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذْنِقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) (الروم ٤١).

وكم بين واقع الأمة الإسلامية اليوم ، والواقع الذي أوصى فيه أبو بكر - رضي الله عنه - خالد بن الوليد ، غادة مسيّره لمحاربة المرتدين: "احرص على الموت توهب لك الحياة" ، فكانت حياة خالد وجنده من الصحابة الكرام ترجمة عملية لهذه الوصية ، مما جعله يقول لهرقل ، قبيل معركة اليرموك: ".. لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحب -أنت- الحياة".

لقد مرت على المسلمين فترات مظلمة - كهذه الفترة أو أشد - مستهم فيها البأس والضراء وزلزلوا ، فحينما اجتاح التتار العالم الإسلامي ، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين ، وأشفع المؤرخون من هول ذكره ، وبلغ الذل بالناس إلى الحد الذي جعل الجندي الأعزل ، من المغول ، يأمر الرجل ، فيضع خده وعنقه على الأرض ، ثم يأمره أن يظل على هذه الحال ، بلا حراك ، ومن غير ما حارس يحرسه، حتى يذهب هذا ويحضر سلحاً يحتز به رقبته!! وفي كل مرة زحف - ويزحف - فيها التتار والمغول وأشباههم ؛ يعلمون على قذف الرعب ، واستلال روح المقاومة من النفوس ، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتف: "وا إسلاماه" ، الذي تردد مرّة في بطاح عين جالوت.

ولن يوقف المغول والتتار ، ومن في حكمهم ، إلا مثل هذا الهاf: "وا إسلاماه".

الهوامش:

١ - النقي هنا : الخوف مطلقاً

٢ - راجع سلسلة مقالات: معلم حول كتابة التاريخ الإسلامي في هذه المجلة: (البيان) للأستاذ محمد العبدة.

٣ - هذا مثل ، يقال في معرض التحذير والتخييف ، وقد استشهد به زياد بن أبيه في خطبته المشهورة التي تدعى: "البتراء" ، انظر لذلك البيان والتبيين للجاحظ ٦١/٢.

أين بوأكيكم يا أهل المخيمات؟!

إعداد. محمد أحمد عبد الله

نقلت جريدة التايمز البريطانية في عددها الصادر في ١١/٢/١٩٨٧ تقريراً - كان قد مضى عليه أكثر من أسبوع - لأحد مراسليها عن الوضع في المخيمات الفلسطينية المحاصرة في لبنان ، تقول فيه: (على بعد أقل من ٢٠٠ ياردة من الخط الأمامي الذي يفصل بين الفلسطينيين الذين يموتون جوعاً وبين أتباع حركة أمل الذين يتمتعون بمستوى مرض للمعيشة في برج البراجنة، كان يقف بائع متوجول عارضاً انبرتقال والبطاطس وأنواعاً أخرى من الفواكه والخضار للبيع).

ومن المحتمل أن يكون الفلسطينيون قد سمعوا صوت البائع وهو ينادي على سلعه على وتيرة واحدة ، وإذا كان زعماؤهم المسلمين قد أفتوهم بجواز أكل اللحوم ا البشرية كملجاً آخر ، فإن المواد الغذائية الازمة لسد رمقهم لم تكن أبعد من مكان تلك العربية القديمة. وباستثناء إطلاق النار المتقطع ، فإن الحياة في المحيط المجاور للمخيم الفلسطيني المحاصر طبيعية تماماً).

وجاء في تقرير وقع من جانب فريق طبي أجنبي يعمل في داخل المخيم: «الوضع حرج وغير إنساني. فلا يوجد هنا دقيق ولا طعام طازج ، ولذلك فإن النساء الحوامل والأطفال يعانون من سوء التغذية. ويتناول الناس هنا أطعمة قديمة مما يجعلهم يتقيأون ويصابون بالإسهال .. والمياه يتم الحصول عليها من خلال حنفيات في الشوارع مع ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر بسبب تبادل إطلاق النار ، والعديد من النساء أصبن بالرصاص على أيدي القناصة أثناء محاولتهم الحصول على الماء لأفراد أسرهن.

ونذكر هنا كل مسلم بأن إسرائيل والولايات المتحدة هما وراء حرب لبنان منذ البداية ، وأن حزب الكتائب كان أحد عملاء إسرائيل في تنفيذ المؤامرة ، وأن المسلمين السنة بشكل عام ، والفلسطينيين منهم بشكل خاص هم المستهدفون في هذه المؤامرة.

وقد خرجت إسرائيل بعد اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ ، وأخذت أطراف طائفية محسوبة على الإسلام تنفذ ما تريده إسرائيل في لبنان. ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى الآن والاعتداءات الوحشية على المخيمات لم تنتهي.

ولا شك أنك - أخي المسلم - على ذكر من المذابح التي ارتكبت في: تل الزعتر، وصبرا ، وشاتيلا ، والبداوي ، ونهر البارد، وطرابلس.. غير أن هذه المذابح تجددت قبل أربعة أشهر في مخيمات شاتيلا ، وبرج البراجنة ، والرسيدية التي يقطنها حوالي ٤٠ ألف فلسطيني بحصار أصبح فيه سكان المخيمات معزولين تماماً عن الحياة وعن العالم الخارجي وبلا مأوى أو كهرباء أو ماء أو أدوية أو مواد غذائية.

وبذلك أصبح الوضع في المخيمات الفلسطينية المحاصرة مأساوياً بكل معنى الكلمة. وأخذت أنباء الرعب تصل إلى دول العالم ، التي لا تكاد تصدق ما يحدث للمدنيين العزل من نساء وأطفال وشيوخ.

وطبقاً لتقديرات المصادر الرسمية اللبنانية فإن حرب المخيمات الفلسطينية في لبنان أسفرت حتى نهاية الأسبوع الثاني من فبراير عن مقتل أكثر من ٨٥٠ شخصاً وإصابة حوالي ١٨٠٠ آخرين بجروح.

وكما تقول التايمز (١٩٨٧/٢/١١) : (فقد تسببت تقارير تبعث على الرعب ، عن الحياة داخل المخيمات المحاصرة ، سواء عن طريق اللاسلكي ، أو قصاصات الورق التي جرى تهريبها عبر خطوط الميليشيات المحاصرة. ولم يدخل أي مراسل صحفى أجنبي أو لبناني المخيمات من أجل التحقق من التقارير الخاصة بالأطفال الذين يتضورون جوعاً).

وهكذا امتد الحصار إلى التعقيم الإعلامي وعدم السماح بدخول المراسلين الصحفيين ، وبرغم قلة ما تسرب من أخبار عن هول الفاجعة التي نقلها بعض المراسلين الأجانب ؛ فإنها أذهلت العالم مما يحدث من تجويع الآلاف وإهلاك العزل من الأطفال والنساء والشيوخ. وهؤلاء الذين كتبوا التقارير من المراسلين الأجانب - كتقرير جريدة التايمز - ليسوا متعاطفين مع الفلسطينيين لكنها فضولية صحفية أو إنسانية ، كما يقولون.

وقد أدت الأعمال الوحشية التي حدثت لسكان المخيمات الفلسطينية إلى استنكار عالمي ؛ حيث قام الكثير من الهيئات الدولية الإنسانية والحكومية من جميع أنحاء العالم تطالب بإنهاء هذه المأساة بأي شكل من الأشكال.

ففي نيويورك دعا مجلس الأمن الدولي إلى وقف حرب المخيمات فوراً وإنهاء الحصار والسماح لشاحنات الأمم المتحدة المحملة بالأغذية بدخول المخيمات فوراً [فرانكفورتر الجمانية ١٩٨٧/٢/١٤].

وفي باريس طلب الرئيس الفرنسي من حكومته إرسال مساعدات غذائية وطبية فورية للمخيمات. وفي بون قدمت الحكومة الألمانية الغربية مذكرة احتجاج ضد مذبحة المخيمات في لبنان إلى سفير إحدى الدول العربية التي تجمع حول سفارتها ٥٠ نائباً برلمانياً ومسؤولياً من أحد الأحزاب الألمانية مطالبين بفك الحصار عن المخيمات الفلسطينية في لبنان [القبس الدولي ١٩٨٧/٢/١٢]. كما استنكرت بريطانيا استمرار محاصرة المخيمات الفلسطينية ودعت كافة الأطراف إلى وقف القتال الدائر حول المخيمات.

وأعلن المستشار النمساوي أن بلاده سترسل معونة غذائية وطبية عاجلة إلى مخيمات لبنان. ومن المضحك المبكي أن إسرائيل التي تدعم الأطراف المحاصرة للمخيمات الفلسطينية أعربت عن استعدادها لإرسال مساعدات لسكان المخيمات المحاصرة!.. وطالب أحد أعضاء المعارضة في الكنيست الإسرائيلي بإرسال مواد إغاثة فورية إلى المخيمات الفلسطينية [فرانكفورتر الجمانية ١٩٨٧/٢/١٤].

ومن المحزن أننا لا نجد موافق جادة في بلادنا العربية والإسلامية لإنقاذ إخواننا في المخيمات. وما يطلق من تصريحات لا يقصد بها سوى مواقف سياسية!.

ولكي نقف على الجحيم والكابوس المتصل لإخواننا في المخيمات - كما تقول [لبراسيون الفرنسي ١٩٨٧/٢/١٠]: نقل فيما يلي روايات الناجين من هذه المذبحة:

امرأة تقول: أتمنى أن لا يعيش أي إنسان الأيام التي عشناها؛ كنا نموت ببطء، هل تعلم ما معنى الحصار؟ الجوع والقصف اليومي والموت والجثث والروائح المميتة؟ [القبس الدولي ١٩٨٧/٢/١٩]. فارس على الخطيب طفل في العاشرة من عمره قال وهو يتحدث بلهجة حزينة وبريئة ومؤلمة: «لم أعد أحتمل الجوع ولم أعد أحتمل صرخ وبكاء إخوتي الصغار الذين أصبحوا أشيبه بهياكل عظمية، ولم أعد أحتمل أصوات انفجارات القنابل والقذائف التي تتتساقط علينا كالמטר» وأضاف قائلاً: «لقد حاولت مع بعض الأطفال الآخرين الهرب من الحصار، ولكن اثنين من الجنود أوقفونا ومنعومنا من الخروج، وقالا لنا: (كلوا أصابعكم فلن نسمح لكم بالخروج). وفي اليوم التالي سمح لقلة من الأطفال وأنا من بينهم بمغادرة المخيم المحاصر حيث رافقنا عدد من رجال الميليشيات المدججين بالسلاح، وأيدينا مرفوعة إلى أعلى، وتوجهنا إلى أحد المستشفيات في منطقة مار إلياس في بيروت الغربية. وبيدو أن أحد رجال الميليشيات تعرف علي لأنه كان أحد المسلمين اللذين حال دون هروبنا من المخيم في اليوم السابق، ولهذا اقترب مني وأخذ يمعن النظر كما لو أنه تذكر هو الآخر شخصيتي، ولكن بحركة عفوية اختبأ وراء أحد الجدران وأنا أرتعد من الخوف ومن شدة البرد ومن الجوع والألم، وتنفست الصعداء حين اضطر هذا المسلح إلى التوجه إلى مكان آخر لمراقبة عملية إيصال بعض العائلات الفلسطينية إلى مار إلياس.

ويقول الطفل محمد قصاب البالغ من العمر ٩ سنوات، والذي نجح مع زميله فارس في الهرب من الحصار المفروض على المخيم: «لقد اضطربنا الحال إلى قتل الكلاب والقطط، وقمنا بطبخها كما لو أنها لحوم البقر أو الغنم لسد جوعنا. وأضاف: إن الجوع جعلنا لا نفرق بين البقر ولحم الكلاب باستثناء أن طعم لحم الكلاب والقطط كان مالحاً بعض الشيء» [القبس الدولي ١٩٨٧/٢/٢٣ عن دير شبيغل].

وتقول زينة المغربي (١٩ عاماً) وهي ترقد على سرير بأحد المستشفيات: «أصابتني رصاصة في معدتي ولو لا ضرورة إجراء جراحة لما كنت تركت المخيم».

وقالت كاملة عبد السيد (٢٠ عاماً): «إن رصاصة قنص أصابتها أثناء قيامها بنقل مياه من أحد الآبار إلى المخيم الذي تقيم فيه داخل برج البراجنة. وأضافت قولها: لم أستطع أن أخرج سوى واحدة فقط من بناتي الصغيرات الثلاث من المخيم. والانتتان الآخران لا تزالان هناك».

وقال الطفل بسام البالغ من العمر سبع سنوات وقد اغترقت عيناه بالدموع: «لا أريد أن ألعب. إنني جائع لم يكن في المخيم ما نأكله سوى الحشائش». ويصف محمد نصار (١٥ عاماً) محنّة إخوانه في مخيم برج البراجنة فيقول: «كنت جائعاً ورأيت بعض الأشخاص يأكلون كلباً. لم أستسغ الفكرة ولكن لم يكن أمامي خيار يذكر» ويمضي قائلاً: غلينا الكلب ثم ألقينا بالمياه بعيداً وشوينا الحيوان في العراء. كان مذاقه مراً للغاية ولكن..» [القبس الدولي ١٩٨٧/٢/١٦].

وقال كريم عوني وهو في العاشرة من العمر: «بينما كانت عناصر الميليشيات المحاصرة لنا يوزعون عليهم فطائر بالزعتر ، كنا نقتات بالحشائش من الأحواض الصغيرة» وأبلغت والدته الصحفيين : «الكلام عن أن بعضنا أكل لحم القطط والكلاب صحيح. لقد شاهدنا رؤوس هذه الحيوانات وسط النفايات».

وكان فريق طبي أجنبي يعمل في مخيم برج البراجنة قد ذكر أن الفلسطينيين اضطروا للأكل الجرذان والقطط والكلاب للبقاء على قيد الحياة بسبب الحصار الطويل. وقالت حسنة الخليل وهي أم لثمانية أطفال: «عندما ينتهي مخزون عائلة من الحليب فإنها تشارك جارتها ما لديها من حليب حتى لا يبقى عند العائلتين أي شيء» [القبس الدولي ١٩٨٧/٢/١٤].

ويقول أحد الأطباء الكنديين العاملين في مخيم شاتيلا: إن وسط المخيم أصبح أشبه ما يكون بمزربلة هائلة. واللجان المسئولة عن إدارة شؤون المخيم أرغمت الجميع على قص شعورهم ورش أنفسهم بمادة "د. د. ت" من أجل قتل البراغيث.

ولا يوجد هناك أي غذاء. ومياه الشرب ملوثة بمياه المجاري مما أدى إلى ظهور حالات من مرض «التيفود».

وقال أحد الفلسطينيين: «هناك مجاعة كاملة في مخيم الرشيدية فالسكان لا يجدون أي شيء داخل المخيم. وحتى الأعشاب قد نفت ، فقد أكلوها. وهم يحاولون الآن التسلل إلى خارج المخيم من أجل التقاط بعض النباتات الخضراء. ولكن الثمن الذي يدفع في هذه الحالة يكون دم الصبية الصغار الذين يحاولون التسلل بين الأشجار» [الغارديان ١٩٨٧/٢/٧].

نحن نستنكر الإرهاب وخطف أساتذة الجامعات ورجال الدين وغيرهم وغيرهم من أي جهة كانت ، ولكن لماذا يهتم العالم وتقوم الدول الإنقاذ هؤلاء الرهائن ولا يتحركون من أجل الفلسطينيين المسلمين ، وربما تكشف لنا الأيام بعد فترة على أن هذه الدول التي تزعم محاربة الإرهاب وهي ضالعة فيه أنها والمتآمرون كانوا يفتعلون قضايا من أجل إبادة الفلسطينيين المسلمين. إن الذين سببوا عنون بجريمة قتل الفلسطينيين وحصارهم حتى الموت صنفان من الناس :

صنف يشارك في هذه الجريمة فعلياً بجسمه وعقله وماله وسلاحه ، تخطيطاً وتنفيذًا.

وصنف واقف متفرج يراقب كل ذلك ، وهو قادر على أن يفعل شيئاً ، ولا يفعل ، إما تخاذلاً وإما تجاهلاً وتأمراً. والذي يخامر على المجرم شريك له في الجريمة ، هكذا قررت هذا المبدأ البسيط جميع الشرائع، سماوية كانت أم أرضية.

وليس ما يحدث إلا محنَة للمسلمين ، ودروس لهم ، ليستخلصوا منها العبرة ، فيثوبون إلى رشدهم ، وتنكشف الغشاوة عن عيون كثير منهم ، ويستطيعون بعدها تمييز الصديق من العدو . وبعد ذلك فالظلم مرتعه وخيم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقذون .

الإسلام قول وعمل واعتقاد

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

دين الإسلام الذي بعث الله به رسلاً ، وأنزل به كتبه مشتمل على أقوال وأعمال واعتقادات ، بالإسلام بعث الله جميع النبيين ، قال تعالى : ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)). وقال : ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)). وقال نوح : ((يَا قَوْمَ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكِّلْتُ فَاجْمِعُوهُ أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ))).

وأخبر الله عن إبراهيم عليه السلام أن دينه الإسلام فقال تعالى : ((وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَهُ وَلَقِدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بْنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)). وقال تعالى : ((وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمْنَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ اللَّهُ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)) وبمجموع هذين الوصفين : إسلام الوجه لله والإحسان في العمل على السعادة فقال تعالى : ((بَلِّي مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ اللَّهُ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَأُهْ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ)) ، كما علقها بالإيمان بالبيوم الآخر والعمل الصالح فقال - : ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَأُهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ)) ، وهذا يدل على أن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الإحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والإيمان المقربون بالعمل الصالح متلازمان .

فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصاً له الدين ، وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا ، إلا بما أمرت به رسليه ، لا بما يصاده ، فإن ضد ذلك معصيته ، وقد ختم الله الرسل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فلا يكون مسلماً إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام .

ثم لابد من التزام ما أمره به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس: الشهادتان والصلة والزكاة والصيام والحج ، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك كما في الحديث: «من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الإسلام تركه» .

والدين : مصدر دان يدين ديناً ، إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسليه هو الاستسلام لله وحده ، وهو الخضوع له والعبودية له ، قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم . فمن استكبر عن عبادة الله ، أو عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، وجميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام .

ويدخل في مسمى الدين أيضاً عند الإطلاق الأعمال الباطنة وهي أعمال القلوب؛ كالحب والخوف والرجاء والخشية والرغبة والإنابة والتوكّل والمعرفة واليقين والصدق، وعلم القلب وتصديقه؛ كاإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

كما يدخل فيه جميع الأعمال الظاهرة، كالنطق بالشهادتين والصلوة وأداء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام وبر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والجيران والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل فيه أيضاً: إفشاء السلام وإطعام الطعام والجهاد في سبيل الله وطاعة أولي الأمر في طاعة الله ونصح المسلمين وتعليمهم وإرشادهم، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - في آخر حديث جبريل الطويل: «هذا جبريل أتاكـم يعلمـكم دينـكم» بعد أن شرح درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان، فجعل ذلك كله ديناً.

وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمى الإسلام ومسمى الدين كالزنا والرِياء والسرقة وشرب الخمر وأكل مال اليتيم وإيذاء الجار بقول أو فعل.

فالخلاصة أنه يدخل في مسمى الدين ومسمى الإسلام عند الإطلاق: فعل جميع الواجبات القولية والفعالية، وترك جميع المحرمات القولية والفعالية.

والأدلة على ارتباط أعمال الدين بالقلب واللسان والجوارح كثيرة منها حديث جبريل المشهور فإنه سأله النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام والإيمان والإحسان، فأما الإسلام فقد فسره النبي - صلى الله عليه وسلم - بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهي منقسمة إلى عمل بدني، كالصلاحة والصوم، وإلى عمل مالي وهو إيتاء الزكاة، وإلى ما هو مركب منهما كالحج، ومن الأدلة أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : «الإيمان بضع وسبعين شعبة ، أعلاها : قول: لا إله إلا الله، وأدنىها :

إماتة الأذى عن الطريق» فدل هذا الحديث على أن الإيمان أصل له شعب، وشعبه هي أعمال القلوب وأعمال الجوارح، قال - صلى الله عليه وسلم - : «الحياء شعبة من الإيمان» وكذلك التوكّل والخشية والإنابة من شعبه، وكذلك الصلاة من الإيمان والزكاة والصوم والحج ، حتى تنتهي هذه الشعب إلى : إماتة الأذى عن الطريق ، وبين شعبة الشهادة وشعبة الإماتة للاذى عن الطريق شعب متفاوتة ، منها ما يقرب من شعبة الشهادة ، ومنها ما يقرب من شعبة الإماتة ، ومن الأدلة أيضاً

قوله - عليه السلام - : «من أحب الله وأبغضه الله وأعطى الله ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان»ن ، فأدخل أعمال القلوب - وهو : الحب والبغض - في الإيمان ، كما أدخل أعمال البدن في الإيمان - وهو : الإعطاء والمنع - ومن الأدلة أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : «المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده» ، فسمى المسلم من ترك أذية الناس بلسانه ويده ، ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، ويدل على هذا أيضاً ما أخرجه الإمام أحمد

والترمذى والنمسائى من حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتوحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميـعا ولا

تعوجوا ، وداع يدعـو من جوف الصراط ، فإذا أراد أحد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحـه ؛ فإنـك إن تفتحـه تلـجه ، والصراط: الإسلام ، والسوران: حدود الله عز وجل ، والأبواب

المفتـحة: محـارم الله ، وذلـك الداعـي على رأس الصراط: كتاب الله ، والداعـي من جـوف الصراط: واعـظ الله في قـلب كل مـسلم» ، زـاد الترمـذى: «وـالله يـدعـو إـلـى دـار السـلام وـيـهـدى مـن يـشـاء إـلـى

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

صراط مستقيم» ، ففي هذا المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم - : أن الإسلام هو : الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه ، ونهى عن مجاوزة حدوده ، وإن ارتكب شيئاً من المحرمات فقد تعدى حدوده ، ومن الأدلة ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم- أن رجلاً سأله النبي - صلى الله عليه وسلم - : أي الإسلام خير ؟ قال: «أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة الدالة على أن أعمال الدين مرتبطة بالقلب واللسان والجوارح ، ومن نطق بالشهادتين ولم يصدق بقلبه ولم يعمل بجوارحه فمن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الشارع - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجعل الإيمان حاصلاً بمجرد قول اللسان ؛ فإن المنافقين يقولون : لا إله إلا الله بأسنتهم ، وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار ، وقد نفى الله الإيمان عنهم في القرآن الكريم كما قال تعالى: ((وَمِن النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ)) ، وقال: ((إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّا لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)) ، وقال عن المنافقين: ((يَقُولُونَ بِالْأَسْنَاتِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)) ، وقال عن المشركين: ((يُرْضُوُنَّكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثُرُهُمْ فَالْسَّقُونَ)) ، فلا يكون الإنسان مؤمناً مسلماً حتى يتواتأ قلبه ولسانه على النطق بالشهادتين ، ويعمل بجوارحه وقلبه بمقتضاهما من المحبة والطاعة والانقياد وخوف الله ورجائه والصلوة والصيام وغير ذلك ، فإنه من المعلوم بالضرورة أن الشارع الحكيم رتب الفوز والفرح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - في حديث عتبان: «إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجهه الله» ، ولما سأله أبو هريرة النبي - صلى الله عليه وسلم - : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» ، وفي روایة: «مخلصاً من قلبه» ، وفي روایة: «صادقاً من قلبه دخل الجنة» ، وفي حديث آخر: «من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله» ، إذن فلا بد من قول : لا إله إلا الله مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداتها ، فإن هذه الكلمة هي كلمة التقوى وهي العروة الوثقى وهي التي جعلها إبراهيم - عليه السلام - باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، وهو - عليه السلام - يتبرأ من الشرك وأهله ، كما قال تعالى: ((وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)).

ومن امتنع عن العمل بجوارحه وقال: الدين في القلب محتاجاً بقوله - عليه السلام - : «التقوى هنا» وأشار إلى صدره ، فيقال له: إن الإيمان الذي في القلب لابد أن تصدقه الجوارح بأعمالها ، فإن التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزني وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» ، وقال الحسن البصري - رحمه الله - ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في الصدر وصدقه الأفعال) ، وأما قوله - عليه السلام - : «التقوى هنا» - ويشير إلى صدره ثلاث مرات « ، فيه إشارة إلى أن كرم الخلق عند الله بالتقوى ، فرب من يحرّك الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا وهو أعظم قدرأ عند الله ممن له قدر في الدنيا ، كما قال بعد هذه العبارة: «بحسب امرئ من الشر أن يحرّك أخيه المسلم» وقال قبلها: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذه ولا يكذبه ولا يحرّكه» ، فإن الناس إنما يتعاونون بحسب التقوى ، كما قال تعالى: ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْلَكُمْ)) ، وسئل النبي - صلى الله عليه وسلم - من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم الله تعالى» ، وفي حديث آخر: «الكرم التقوى» ، والتقوى أصلها في القلب ، كما قال تعالى: ((وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)) ، وكما قال الله في الحديث القدسي، حديث أبي ذر الطويل. «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنكم وجنكم كانوا على أنقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك

في ملكي شيئاً». وفي هذا دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هي القلوب ، فإذا برّ القلب واتقى برّ الجوارح ، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح ، ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب ، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» ، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً.

ومن امتنع عن النطق بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، فلا شك أن الإسلام يزول بفقد الشهادتين إذ المراد بالشهادتين الإيمان بالله ورسوله ، والشهادتان عَلَمُ الْإِسْلَامِ ، وبهما يصير الإنسان مسلماً إذ من أقر بالشهادتين صار مسلماً حكماً ، فإذا دخل الإسلام بذلك ألزم بالقيام ببقية خصال الإسلام ، وقد ضرب العلماء مثل الإيمان بمثل شجرة لها أصل وفروع وشعب ، فاسم الشجرة يشتمل على ذلك كله ، ولو زال شيء من شعبها وفروعها لم يزل عنها اسم الشجرة ، وإنما يقال هي شجرة ناقصة وغيرها أتم منها ، وقد ضرب الله مثل الإيمان بذلك في قوله تعالى : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلْمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا تَابِتٌ وَفَرْعُعَهَا فِي السَّمَاءِ)) ، والمراد بالكلمة كلمة التوحيد ، وبأصولها التوحيد الثابت في القلوب ، وأكلها هو : الأعمال الصالحة الناشئة فيها ، وضرب النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل المؤمن والمسلم بالنخلة ، ولو زال شيء من فروع النخلة ومن ثمرها لم يزل بذلك عنها اسم النخلة بالكلية . وإن كانت ناقصة الفروع أو الثمر ، فمن ترك الشهادتين خرج من الإسلام ، إذ يعلم من مراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - علماً ضروريًا أن من لم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ولا رسوله ولا خاف الله أن هذا ليس بمؤمن وإن أدعى أنه عارف بقلبه صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فإن معرفته بقلبه لا تنفعه والحالة هذه ؛ إذ أن الشارع رتب الفلاح والفوز على النطق بالشهادتين مع العمل بمقتضاهما ، والأدلة على ذلك كثيرة مشهورة عند العلماء ، من ذلك : حديث جبريل المشهور الطويل في سؤاله للنبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فأجابه بأن الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتحتلي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . ومن ذلك : حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان» ، رواه البخاري ومسلم ، وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لوفد عبد القيس: «أمركم بأربع: الإيمان بالله وحده ، وهل تدرؤن ما بالإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم» ، وعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق».

ومن أجل هذه الكلمة خلق الله الخلق ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق الجنة والنار ، قال تعالى: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ)) ، وقال تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)) ، وقال تعالى: ((وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنَّ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ)) وقال تعالى: ((وَإِذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ)) وهذا معنى كلمة الإخلاص الذي اجتمعت عليه الرسل.

فمن نطق بهذه الكلمة عارفاً لمعناها صادقاً من قلبه عاملاً بمقتضاها فهو المسلم ، ومن امتنع عن النطق مع قدرته ولم يعمل بمقتضاها فليس بمسلم وإن ادعى الإسلام .
وفق الله المسلمين لتحقيق إسلامهم وإيمانهم ، إنه سمع مجيب .

أعلام الإسلام الإمام البغوي

إعداد: سليمان الحرش

الإمام الحافظ ، الفقيه ، المجتهد ، محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، ويلقب أيضاً بركن الدين. أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز، والسنة النبوية ، دراسة وتدريساً، وتأليفاً.

والفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها .
والبغوي: نسبة إلى بلدة يقال لها: "بغ" وبُغْشُو ، وهي بلدة بخراسان بين مرو وهراء .

شيوخه:

من شيوخه: القاضي حسين بن محمد المروزي الشافعي ، وعبد الواحد الهراوي ، وأبو السن الجوني ، وحسان بن سعيد المنبي ، وأبو بكر المروزي ، وأبو القاسم القشيري ، وأبو بكر الصيرفي ، وأبو صالح أحمد بن عبد الملك النيسابوري ، وعبد الباقي بن يوسف المراغي الغريزي الشافعي ، وأبو الحسن البوشنجي ، وعمر بن عبد العزيز القاشاني ، وأبو الحسن الشيرازي ، وأبو جعفر محمد بن عبد الله الطوسي ، وأبو طاهر الزرار ، ومحمد بن عبد الملك السرخي ، وغيرهم .

صفاته وثناء العلماء عليه:

كان البغوي شافعي المذهب - بحكم البيئة التي نشأ فيها ، والعلماء الذين أخذ عنهم - إلا أنه لم يتعصب لإمامه، بل كان يتبع الدليل، وينظر في أقوال العلماء وأدلتهم ، وأخذ يدعو إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (كان البغوي سيداً ، إماماً عالماً ، علامة ، زاهداً ، قانعاً باليسير).
وقال السيوطي في طبقات الحفاظ: (وبورك له في تصانيفه ، لقصده الصالح ، فإنه كان من العلماء الربانيين ، ذا تعبد ونسك ، وقناعة باليسير) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وكان علامة زمانه ، ديناً ، ورعاً ، زاهداً ، عابداً ، صالحاً).
آثاره:

ترك الإمام البغوي مؤلفات كثيرة مفيدة في التفسير والحديث ، وفقهه كان لها الأثر النافع والعظيم فيمن جاء بعده ، وتتصف بموضوعاتها القيمة ، وبكلماتها السهلة ، وبطريقتها المفيدة .

ومن أهم كتبه:

١- معلم التنزيل ، في التفسير ، وهو كتاب متوسط ، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتتابعين ومن بعدهم ، قال عنه ابن تيمية: (والبغوي تفسيره مختصر من تفسير الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والأراء المبتدعة) [الفتاوى ٣ / ٣٥٤ ، ٣٨٦] .

٢- شرح السنة ، جمع البغوي فيه بين الرواية والدرایة .

٣- مصابيح السنة ، جمع فيه المؤلف طائفة من الأحاديث ، محفوظة الأسانيد ، معتمداً على نقل الأئمة ، وقسم الأحاديث إلى صحاح وحسن ، وعنى بالصحاح ما أخرجه الشیخان ، وبالحسن ما أورده أبو داود والترمذی ، وما كان فيه من ضعيف أو غريب أشار إليه ، وأعرض عنما كان منكراً أو موضوعاً . وهو كتاب مشهور ، اعتنى به العلماء . ومن أهم شروحه: "مشكاة المصابيح للشيخ ولی الدین محمد بن عبد الله الخطیب فقد أکمل "المصابيح" وذیل أبوابه؛ فذكر اسم الصحابي الذي روی عنه الحديث، وذكر الكتاب الذي أخرجه ، وهو كتاب مخدوم مطبوع بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني .

وفاته:

توفي - رحمه الله - بـ (مردو الروذ) في خراسان ، في شوال سنة ٥١٦ هـ ، ودفن جانب شیخه . القاضی حسین ، وعاش بضعًا وسبعين سنة ، رحمه الله .

التجديد في الإسلام (٥) الإمام أحمد بن حنبل (ناصر السنة)

كان آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث من فترات الاضطراب الفكري ، التي تركت آثاراً ضخمة في الحياة الإسلامية .

فقد كان لنشوء البدع - المتقدم على هذه المرحلة - ثم ترجمة الكتب الفلسفية واحتلال المسلمين بها وحث الخليفة الناس على تعريبيها، حيث وجد أهل البدع فيها سندًا لهم، فأصلوا مذاهبهم على ضوئها ، وتوسعوا بشكل سافر في إدخال النظريات الفلسفية إلى صميم العقيدة الإسلامية ، أن صار ذلك العصر هو عصر النضج واكمال بناء المذهب بالنسبة للمعتزلة ، وفيه برز عدد كبير من فلاسفتهم ومنظري مذهبهم كأبي الهذيل العلاف - شيخ المأمون وأستاذه - ، وإبراهيم بن سيّار النظام ، ومعمر بن عباد السلمي ، وبشر بن المعتمر وغيرهم .

وقد علا شأن الرافضة - لما بينهم وبين المعتزلة من الأوصير العقدية - وبدعوا يجهرون بأرائهم في الإمامة والولاية والرجعة وغيرها .

وفي وسط هذا المناخ المضطرب نشأت كثير من الحركات السرية الإلحادية والتي عرفت بحركات الزنادقة ، وكان يقف خلفها الباطنيون المترబون بالإسلام .

وبالجملة فقد كان ذلك العصر هو الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم - بقوله في الحديث: " ثم ينشد الكذب " (١) .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في وصف ذلك العصر: (وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلسفية رؤوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن ، وظهر قوله صلى الله عليه وسلم: " ثم ينشد الكذب " ظهوراً بيناً ، حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان) (٢) .

وكان الخلفاء أنفسهم - ولأول مرة في الإسلام - يعتقدون البدع ويعلنونها فكان المؤمنون موافقاً للمعتزلة في معظم عقائدهم ، وكان إلى ذلك مرجحاً ، وجاء من بعده: المعتصم -، فالواثق ، فكانا على نهجه.

وقد عمل المؤمنون بعد ولaitه على نصر مذهب المعتزلة ، فقرب رؤوسه كأحمد بن أبي دؤاد ، وعقد مجال المنازرة بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة ، فلما لم تجد شيئاً بدأ بالتضييق على الناس وإلزامهم بالقول بخلق القرآن ونفي الرؤية ، حتى أصبح القول بذلك شرطاً عنده لتولي المناصب بما فيها القضاء!

وحين كان بالرقة استطاع وزراؤه المعتزلة أن يقنعوا بحمل الناس على المذهب بالقوة ، فكتب إلى واليه على بغداد بجمع العلماء وامتحانهم في مسألة خلق القرآن وحمل من يرفض هذه العقيدة مقيداً مصداً إلى المؤمنون.

فأجاب العلماء أجوبة تتراوح بين التقية وحسن التخلص إلا أربعة أصرّوا على عقيدة أهل السنة والمجاهرة بها ، وهم: القواريري ، وسجادة ، ومحمد بن نوح ، والإمام أحمد.

ثم أجاب الأولان تحت ضغط التعذيب والإرهاب ، وحمل الآخران إلى المؤمنون مكبلين بالقيود ،

فتوفي محمد بن نوح في الطريق ، وبقي الإمام أحمد وحده في الطريق!

ثم مات المؤمنون ، فرد أحمد إلى بغداد ، وأخذت الفتنة مدى أوسع في عهد المعتصم ، حيث سجن الإمام أحمد مقيداً نحو من ثلاثين شهراً ، وكان يصلّي وينام والقيد في رجله!

وفي كل يوم كان ينفذ إليه المعتصم من يناظره ويهدده إن لم يجب بأشد مما هو عليه، ثم يزاد في قيوده، وقد جهد المعتصم في التأثير على موقف الإمام بالملائنة والعطف وإظهار الفضل،

والترغيب والوعد.. فكانت كلمة الإمام واحدة لا تتغير. حتى إذا استقرّوا وسعهم أضمرّوا الشدة والقسوة، وشعر الإمام بذلك فكان يشد عليه سراويله وينتظر الضرب، فيأتي المعتصم

يناظره ويناظرونّه ، حتى يثور غضبه فيشتم الإمام ويأمر بسحبه وتخلیعه ، وظلوا على هذه الحال يأتي الجلادون بالسياط الغليظة فيردها المعتصم. ليطلب أغاظ منها ويأخذ الجلادون دورهم فيضربه كل واحد منهم سوطين ، والمُعتَصِم يحرضهم وهو واقف على رؤوسهم حتى أغمي على الإمام أحمد، فلما أفاق جاؤوا إليه بسوقه، فقال: لا أفتر! وصلى - رحمه الله - والدماء تسيل في ثوبه.

قال الإمام أحمد: ذهب عالي مراراً، فكان إذا رفع عني الضرب رجعت إلى نفسي ، وإن استرخت وسقطت رفع عني الضرب.

وقال أحد الجلادين: لقد ضربت أحمد ثمانين سوطاً لو ضربتها فيلاً لهته.

وكان الإمام أحمد ينتظر الشهادة في سبيل الله ، فحين نخسه أحد الحراس بسيفه فرح وقال: جاء الفرج، يضرب عنقي وأستريح، فقال ابن سماعة (٣): يا أمير المؤمنين: اضرب عنقه ودمه في رقبتي، فقال ابن أبي دؤاد: لا يا أمير المؤمنين، إن قتل أو مات في دارك قال الناس: صبر حتى قتل ، فاتخذوه إماماً ، وثبتوا على ما هم عليه ولكن أطلقه الساعة فإن مات خارجاً عن منزله شك الناس في أمره.

فآخر جهاد الإمام أحمد وفي كل موضع منه جراحة حتى إن أحداً لمّا هم بمساعدته على النزول من الذّابة وقعت يده على بعض تلك الجراحات وهو لا يشعر فصاح الإمام أحمد فنحى يده عنه. وجاءه بالطبيب فكان يدخل الميل في بعض الجراحات ، وكان يأتي بالحديدة فيعلق بها بعض لحمه ليقطعه بالسكين وأحمد صابر يحمد الله.

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

ولما مات المعتصم وولي الواثق فرض الإقامة الجبرية على الإمام أحمد، فلا يخرج حتى للصلوة، ولا يجتمع إليه أحد، حتى هلك الواثق، ثم جاء بعده المتوكل، فرفع المحنّة، ونصر السنة، وقرب أهلها.

لقد كان انتصار الإمام في تلك المحنـة الرهيبة القاسية انتصاراً للتيار الأثري الملزـم بما كان عليه سلف هذه الأمة في جميع نواحي الاعتقاد ، وليس في مسألة القرآن فحسب ، فثبتت الناس على ما هـم عليه بفضل الله ، ثم بفضل وجود القيادة التي تتحطم عندها أمواج البدعة ، وهذا كان رد الإمام أحمد على المرزوقي حين طلب منه التقـيـة فقال له: اخرج فانظر ! قال: فخرجت فرأيت خلقاً لا يحصـيـهم إلا الله تعالى ، والصحف في أيديـهم والأقلـام والمحـابر ، فقال لهم: أي شيء تعملـون؟ قالـوا: ننظر ما يقولـونـ أـحمد فـنكتـبه!

يقول الشيخ أحمد شاكر تعليقاً على موقف الإمام أحمد:

(اما اولو العزم من الائمة الهداء ، فإنهم يأخذون بالعزيمة ، ويحتملون الأذى ويثبتون ، وفي سبيل الله ما يلقون ، ولو أنهم أخذوا بالتقية ، واستساغوا الرخصة لضل الناس من ورائهم ؛ يقدون بهم ولا يعلمون أن هذه تقية ، وقد أتى المسلمين من ضعف علمائهم في موافق الحق.. لا يجاملون الملوك والحكام فقط! بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعاً أو خافوا ضرراً في الحقير والجليل من أمر الدنيا.. ، ولقد قال رجل من أئمة هذا العصر المهتدين: "كأن المسلمين لم يبلغهم من هداية كتابهم فيما يعششون من ظلمات الحوادث غير قوله تعالى: ((إلاَّ أَن تَنْقُوا مِنْهُمْ ثُقَّةً))، ثم أصيروا بجنون التأويل فيما سوى ذلك.." (٤).

لقد صار الإمام أحمد علماً شامخاً يقتدي به ويقتفي أثره ، وارتبط به مذهب أهل السنة أيما ارتباط حتى ليقال: عقيدة الإمام أبي عبد الله ، ولا شك أن جماهير العلماء والأنتمة في زمانه كانوا على ذات العقيدة ، ولكنها عرفت به لما بذل في سبيلها وتحمل من أجل إقرارها. قال بعض العلماء عشية دفن أحمد: "دفنا اليوم سادس خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وعمر بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل (٥).

وَقَيلَ لَآخْرَ: لَوْ تَكَلَّمْتِ يَوْمَ ضُربَ أَحْمَدَ! قَالَ: أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَقُومْ مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ؟ (٦). وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوِيَّةَ: لَوْلَا أَحْمَدَ وَبَذَلَ نَفْسَهُ لَمَا بَذَلَهَا لَهُ لِذَهَبِ الْإِسْلَامِ (٧). وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ عَبَّاسَ: قَلْتُ لِأَبِي مَسْهُرَ: هَلْ تَعْرِفُ أَحَدًا يَحْفَظُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا؟ قَالَ: لَا أَعْلَمُ إِلَّا شَابٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَشْرُقِ، يُعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ (٨). وَقَالَ عَلَيْ بْنُ الْمَدِينِيِّ: إِنَّ اللَّهَ أَعْزَزَ هَذَا الْدِينَ بِأَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ يَوْمَ الرَّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلِ يَوْمَ الْمَحْنَةِ. وَقَالَ أَبُو حَاتَّمَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَحْبُّ أَحْمَدَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سَنَةِ (٩). وَلَقَدْ مَرَ زَمَانٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ أَعْزَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَحِيدٌ فَرِيدٌ، لَا يَجِدُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا يَعْضُدُهُ فِي مَوْقِفِهِ أَحَدٌ.. وَكَانَ لِأَعْدَائِهِ الْجَاهُ وَالسُّلْطَانُ وَالدُّولَةُ، فَكَانَ يَقُولُ: قُولُوا لِأَهْلِ الْبَدْعِ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْجَنَائِزُ! فَلَمْ تَمْضِ أَوْيَقَاتٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى عَلَا شَأنُهُ، رَحْمَهُ اللَّهُ، وَذَاعَ صَيْتُهُ، وَانْتَشَرَ مَذْهَبُهُ، وَعُظِّمَ قَدْرُهُ، حَتَّى تَضَاءَقَ هُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَمَنَّى الْمَوْتُ لِكَرَاهِيَّتِهِ لِلشَّهَرَةِ وَحِبَّهِ لِلْخَمْوَلِ. أَمَا فِي الْمَوْتِ فَإِنَّ أَقْلَ مَا حَرَّزَتْ بِهِ جَنَازَتُهُ سَبْعَمِائَةَ أَلْفِ إِنْسَانٍ!

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : (وقد صدق الله قول أَحْمَدَ فِي هَذَا ؛ فَإِنَّهُ كَانَ إِمَامَ السَّنَةِ فِي زَمَانِهِ ، وَعِيُونَ مُخَالِفِيهِ ، أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دَوْادَ وَهُوَ قَاضٌ مِّنْ قَضَاءِ الدُّنْيَا لَمْ يَحْتَلِ أَحَدًا بَمُوْتِهِ ، وَلَمْ يَلْقَطْ إِلَيْهِ وَلَمْ ماتْ مَا شَيْعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْ أَعْوَانِ السُّلْطَانِ ، وَكَذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ أَسْدِ الْمَحَاسِبِيِّ مَعَ زَهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَتَنْقِيرِهِ وَمَحَاسِبِتِهِ نَفْسَهُ فِي خَطْوَاتِهِ وَحَرْكَاتِهِ لَمْ يَصُلْ عَلَيْهِ إِلَّا ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةَ مِنَ النَّاسِ ،

وكذلك بشر بن غياث المرسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فلله الأمر من قبل ومن بعد) (١٠).

ولم يكن هذا هو الجانب الوحيد الذي قاد فيه الإمام أحمد معسكر أهل السنة فخرج ظافراً منصوراً ، بل إن ثمة جوانب أخرى كثيرة نشير إشارة سريعة إلى واحد منها ألا وهو وقوفه - رحمة الله - في وجه طغيان المادة ، وسريان روح الترف القاتل في أوساط المسلمين.

فقد كان في نفسه - رحمة الله - مثلاً أعلى في الزهد والورع والتعفف والإعراض عن زخارف الدنيا ومباهجها ، ولقد رفض أموال السلاطين ، ولم يقبل عطايا المتكفل ، كما فرض على بنيه وقرابته عدمأخذ شيء من ذلك ، فكان المتكفل يصلهم سراً! وله في الزهد والورع حكايات عجيبة ، ولا ندري والله ما نأخذ منها وما ندع ، فليراجعها من شاء في مظانها ؛ فهي مما يحرك في النفس عزيمة الاقتداء.

ولقد صنف - رحمة الله في ذلك كتابي: (الزهد) و (الورع). وإن كنا من وراء هذه المفاوز البعيدة نقرأ سيرته فننطلع إلى الإقتداء والاتباع والاهتداء ، فما بالك بالناس في عصره وهم يرون بأعينهم - على الدوام - ما نسمعه نحن سمعاء، فلا يكاد يستقر في الأفهام ؛ بل ما بالك بتلاميذه وأقرانه وأبنائه وجيرانه.. أي روح يشيعه وجود مثل هذا الصديق بينهم؟ (١١).

"يتبع" الهوامش:

- ١ - سبق تخریج الحديث من حيث أصله ، وهذه الروایة عند ابن ماجه.
- ٢ - فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٦.
- ٣ - ابن سماعة هذا كان صلى الله عليه وسلم أَحْمَدَ فِي السُّجُنِ وَالدَّمِ يَسِيلُ مِنْ جَسَدِهِ! فَقَالَ لَهُ: صَلِيَتِي وَالدَّمِ يَسِيلُ مِنْ ثُوبِكِ! فَقَالَ أَحْمَدُ: قَدْ صَلِيَ عُمْرَ وَجْرَهُ يَثْبَعُ دَمًا!.
- ٤ - مقدمة المسند ، ج ١ ، ص ٩٨ (هامش).
- ٥ - حلية الأولياء لأبي نعيم ، ج ٩ ، ص ١٦٦ ، دار الكتاب العربي.
- ٦ - الحلية ، ج ٩ ، ص ١٧٠.
- ٧ - أيضاً ، ص ١٧١.
- ٨ - ترجمة الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام (مقدمة المسند) ج ١ ، ص ٦٥.
- ٩ - تقدمة الجرح والتعديل ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، دار الكتب العلمية.
- ١٠ - البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٣٨٧ ، ط مكتبة الأصممي بالرياض.
- ١١ - انظر ترجمة الإمام أحمد في: تقدمة الجرح والتعديل ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٣١٤ ، وحلية الأولياء ج ٩ ، ص ١٦١ - ٢٣٤ ، ومقدمة المسند ، ج ١ ، ص ٥٨ - ١٣٣ ، وفي آخره ذكر مصادر أخرى للترجمة ، وهي مهمة فلنراجع.

الحرية العرجاء

طارق عبد الحليم

في إحدى قاعات الدراسات.. العليا بجامعة بريطانية عريقة ، ثار نقاش بين جمع من الطلاب الإنجليز حول التركيبة الاجتماعية الحالية للمجتمع في هذه البلاد ، وعلاقتها بالنظم السياسية

والاقتصادية. وقد اشترك في بداية النقاش بعض الطلبة العرب ، ثم آثروا ترك المجال لأبناء البلد ليدلل كل منهم بذله في ذلك الأمر.

وقد أثّرت أن أثبت - بإيجاز - ذلك الحوار لما فيه من صدق وتلقائية.. وكما قيل «من فمه ندينه». أبدى أستاذ القسم ملاحظة حول تكوين النقابات العمالية ونشأتها، وما يتعلّق بنظام الأجور القومي الذي اتفق عليه بين أرباب العمل، وبين النقابات، وارتباطه بنوعية العمل ، وبين أن ذلك يرتبط بعدة أمور - عدا كمية العمل ونوعيته - كعمر العامل وجنسه! أي رجل أم امرأة ..

وعند تلك النقطة تدخل أحد الطلبة قائلاً: إن ذلك الأمر لمن غرائب هذا المجتمع ، إذ لا يوجد أي سبب يبرر ذلك التمييز في الأجر؟ فالمرأة التي تعمل في وظيفة ما ، تتقاضى أقل من الرجل الذي يشغل الوظيفة نفسها ، ويؤدي الجهد نفسه ، ويقضي ساعات العمل نفسها [حوالى ٧٥٪ من أجر الرجل].

وأبدى أن ذلك يتناقض مع ما يدعوه المجتمع الإنجليزي من حرية ومساواة ، خاصة في مجال المرأة وحقوقها..

وساد صمت على القاعة لعدة دقائق راح فيه كل طرف يقلب الأمر على جوانبه بين مؤيد ومعارض. وكانت أتعجب من ذلك الحوار الذي أنطق الله فيه أحد عقلا الإنجليز بالحق ، وأظهر فيه ذلك التعارض القائم بين ادعاء الحرية والمساواة - خاصة في مجال المرأة - وبين ما هو واقع الحال من تفرقة عجيبة لا أساس لها من المنطق العادل بحال - إن حاكمناهم على أصولهم في الحكم على الأمور - تجعل المرأة في الصف الثاني مهما بذلت من جهد وعرق ، مثلاً ببذل الرجل..

وإن كان عجبي كبيراً من ذلك المنطق الأعوج ، وانحراف الفطرة عن طبيعتها لمّا تركت الهدى الإلهي ، وزاغت في طريق الضلال .. فإن عجبي لأكبر من أبناء جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا ، ويدعون إلى تلك الفوضى الاجتماعية التي يلبسونها ثوب الحرية زوراً وبهتاناً ، وينادون في كل ناد أن: اعطوا المرأة المسلمة حقها أسوة بالمرأة الأوروبية!! بل ويقف بعض المسلمين الطيبين موقف الدفاع على أساس أن المرأة المسلمة لها حقوق كذلك في الإسلام أسوة بالمرأة الغربية!! .

ونحن نرد عليهم دعواهم ، وندعى خلافها : أن المرأة الغربية لم تزل حريتها حقاً وصادقاً.. ويالها من حرية تلك التي تشقي بها المرأة في الكد والعمل خارج البيت ، وبالوحدة واحتمال الولد - غير الشرعي - ومسؤولياته ، ومواجهة الحياة دون رفيق يعين على ذلك العنا.. ثم تتقاضى أجرأً أقل من مثيلها من الرجال..

والقانون الإنجليزي لم يحفظ بتلك الصورة ورعاً وتقوى ! إنما احتفظ بها لأنها تخدم أصحاب رؤوس الأموال ، في مجتمع رأسمالي يؤمن بالنفعية كأساس للتعامل ، فالمرأة تحتاج إلى العمل بعد أن تخلق عن دورها الطبيعي ، وبعد أن تخلى عنها الرجل ، ولا بأس إذن من تحقيق فائض من الربح عن طريقها.

ونحن - وإن كنا لا ندعى أن حضارة الغرب شر كلها لا يشوبه خير ؛ فقط إذ أن ذلك لا يكون في أمر من أمور الدنيا التي خلقها الله سبحانه على امتزاج الأمرين معاً ، فخير غالب يشوبه بعض الأذى ، أو شر غالب يسري فيه بعض الخير - قد قصدنا إلى بيان أحد أوجه النقص وأكثرها أهمية في المجتمعات الغربية وغيرها ، التي ارتضت طريقة عيشها لعلم المسلمين أي خير هم عليه ، وأي حق هيا لهم.. ويا لينهم يعلمون فيعملون.

أدب وتاريخ الحلم

للشاعر: معن بن أوس المزني (*)

بحلمي عنه ، وهو ليس له حلم
وكالموت عندي أن يحلّ به الرّغمُ
وليس له بالصَّفْح عن ذنبه علمُ
سهامَ عدوٍ يُستهانُ بها العظمُ
وما تستوي حرب الأقارب والسلمُ
على سهمه ما كان في كفه السهم
وليس له عندي هوانٌ ولا شتمٌ
قطيعتها ، تلك السفاهة والإثمُ
ويدعو لحكم جائرٍ غيره الحُكم

- ١- وذِي رَحِمْ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِي
- ٢- يَحَاوِلْ رَغْمِي لا يُحاوِلْ غَيْرِه
- ٣- إِنْ أَعْفُ عَنْهُ أَغْضَبْ عَيْنَاهُ عَلَى قَذَّي
- ٤- وَإِنْ أَنْتَصِرْ مِنْهُ أَكْنُ مِثْ رَائِشِ
- ٥- صَبَرْتُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنِهِ
- ٦- وَبَادَرْتُ مِنْهُ النَّأَيِّ وَالْمَرْءُ قَادِرُ
- ٧- وَيَشْتَمِ عَرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا
- ٨- إِذَا سُمْتُهُ وَصَلَّ الْقَرَابَةَ سَامِنِي
- ٩- وَإِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبَ إِجَابَتِي

شرح الأبيات (**)

- ١ - رب صاحب قرابة كان ذا ضغينة وحدق عليّ ، أزلت أضغانه بحلمي وصبري ، مع أنه ليس عنده حلم وإنما هو غضوب نفور.
- ٢ - ومن صفاته أنه يحب قهرى وإنزال الأذى بي ، وقد وقف جهده على هذا ، في حين أننى أكره مساعته ونزول أي أذى به كراهيتى للموت.
- ٣ - وأنا في حيرة من أمري معه ، فإنني إن أصبر على أذاه وأعف عنه ، أتحمل مشقة عظيمة بذلك ، وهو لا يدرى المعاناة التي أعنانيها بالصفح عن ذنبه ، وليس يدرى حتى بالصفح نفسه.
- ٤ - ويؤلمنى أن أقابل إساءاته بمثلها أشد الألم ، إذ أننى سأكون كمن يجهز السهام لعدوه ليرمى بها من جهزها.

- ٥ - لكن فضلت الأولى وهي الصبر على ما بدر منه تجاهي، لأنني وجدت أن حرب الأقارب من الأثر ، ففضلت مساملتهم.
- ٦ - ووصلته بعد أن نأى وتباعد عنِّي ، مع أنني قادر على قطيعته.
- ٧ - وفعلت ذلك مع جده واجتهاده في شتم عرض وأنا غائب ، في حين لم يخُب مني ما يسوءه من شتم ولا إهانة.
- ٨ - وإذا ما عرضت عليه التواصل وترك التقطاع والتدابر بحق القرابة والرحم كان جوابه القطيعة ، فياللساقة ، وياما أشد جراءته وحرصه على كسب الإثم.
- ٩ - وإن دعوته للإنصاف، وأن يحل كل منا صاحبه يرفض هذه الدعوة، ويختار الاستمرار في الغي والجور عن القصد.

رعايتها حقٌّ وتعطيلها ظلم
بوسم شَنَار لا يشابهه وسم
وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
وأكره - جهدي - أن يخالطه العدم
وما إن له فيها سناءً ولا غُنم
عليه كما تحنو على الوليد الأم
لتدعنه مني القرابة والرحم
وكظمي على غيظي، وقد ينفع الكظمُ
وقد كان ذا ضغْن يضيق به الحزم
برفقِي أحياناً، وقد يرقع الثَّلْمُ
بحلمي كما يشفى بالأدوية الكلمُ
فأصبح بعد الحرب وهو لنا سُلْمٌ

- ١٠ - فلو لا اتقاء الله والرَّحم التي
- ١١ - إذا لعله بارقي وخطمته
- ١٢ - ويسعى إذا أبني ليهدم صالحِي
- ١٣ - يود لو أثني معيده ذو خاصصة
- ١٤ - ويعتُدْ غنماً في الحوادث نكتبي
- ١٥ - مما زلتُ في ليني له وتعطفني
- ١٦ - وخفضي له مني الجناح تألفاً
- ١٧ - وصبري على أشياء منه تريبني
- ١٨ - لأستلّ منه الضُّغْن حتى استلّته
- ١٩ - رأيت انثلاماً بيننا فرقعته
- ٢٠ - وأبرأت غلَّ الصدر منه توسعًا
- ٢١ - فأطافت نار الحرب بيوني وبينه

- ١١-١٠ - فلو لا تقوى الله ، والخوف من قطع الرحم التي أوجب الله وصلها ، وعده - سبحانه - ظلماً
وأي ظلم ؛ لناجزته العداوة ، ولعلوته بالسيف ، وللحقه مني عار دائم لا يفارقه.
- ١٢ - إنه يصر على هدم ما أبنيه ، وإفساد ما أصلحه ، وشتان ما بين بان وهادم ومصلح ومسد.
- ١٣ - وآنا وإياه على خطتين مختلفتين: فبينما هو يتمنى لي الخاصة ويحب لي الفقر ، فإنني أكره له ذلك وأعمل جهدي على تجنبيه ما يضر به.
- ١٤ - لقد أعمى الحقد بصيرته ، وقلب بغضه لي الموازين في نظره ، حتى أصبح يعد ما يصيبني من نكبات ومصائب مغنمًا له ، وزيادة في ربحه ، مع أنه في الحقيقة لا تعود مصائبِي عليه برفعة قدر ، أو بمنفعة مادية.
- ١٥ - ولم أمل من مداراته وملائنته ، كما تفعل الأم الرؤوم في حنوها على ولدها.
- ١٦ - ولقد بلغت معه الغاية في التواضع وخفض الجناح ، أتألف قلبه ليتذكر القرابة التي تربط بيننا والرحم التي تجمعنا.
- ١٧ - وصبرت على أفعاله المريبة ، وكظمت غيظي على ما يثيرني من تصرفاته الغريبة ، لاعتقادي أن نتيجة كظم الغيظ محمودة في النهاية.
- ١٨ - كل هذا فعلته من أجل أن أداوي مرضه ، وأستل منه حقه ، وأروض نفسه الشموس التي امتلأت حتى ضاقت بهذا الضُّغْن .

١٩ - وكانت علاقتنا مثلومة معيبة ، فعالجت هذا الثلم بترفقي وحكمتي ، والفساد قد يصلح ، والخرق قد يردع.

٢٠ - وكان مريض الصدر بالغل فداويت هذا الغل بحلمي كما يداوى الجرح بالأدوية فيشفى.

٢١ - لقد كان بيبي وبينه حرب مشتعلة ، فما زلت أداريه ، وأترافق به ، حتى حولته عن تلك العداوة ، وأطفأت تلك النار ، وصار لنا سلماً بعد أن كان حرباً.

أ) حول القصيدة

هل عانيت العنا من جراء سلوك أحد أقربائك ، وهل المك أن يقابل معروفك بالتجاهل ، وإحسانك بالإساءة ، وهل صبرت على علاج من هذه حاله ، ومنيت نفسك بتغيره حيث كل الدلائل تشير إلى العكس ، وهل جوبهت بالصد والسفة وصنوف الجحود وأنت كاظم صامت ، تعتمل في داخلك براكين الغضب المكتوم ، تجللها باسمة رضيّة ، ومرة إثر مرة توالت الإساءات ، وتتابعت الإثارات ، وأنت في كل ذلك كأنك محتبس في زنزانة ضيقه ، وأفعى ذات فحيح ليس لك منها فكاك ، ولا عنها مهرب ، وما زلت تداورها في حسن تأيٍ وصبرٍ حتى استلت سُمعها ، وخضدت شوكتها ، فأسلست قيادها بعد طول نفار.

إذا كان لك عهد بهذه التجربة ، أو سمعت من اشتكي مما يشبهها ؛ فإن الشاعر «معن بن أوس المزني» «خَلَدَ لَنَا ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْقُصِيدَةِ».

وقد امتازت هذه القصيدة بثلاث ميزات.

١ - سهولة وبساطة ، في جزالة وقوه أسر:

وهذه معادلة صعبة المرتفقى ، إذا تحققت في أسلوب شخص فقد حق القاء له ، وأن تتسع مساحة الإعجاب به إلى مدى لا يرام.

فقد يظن بعض الناس أن السهولة تعنى الضحالة ، وأن الجزالة تعنى الجفاء والوعورة ، وهذا ظن خاطئ تدحضه هذه القصيدة ، فعلى الرغم من أنها من عصر متقدم ، (إذ أن قائلها شاعر مخضرم) إلا إنها -في سهولتها وانسياب ألفاظها - تدخل العقل والنفس دونما عناء ، وتثبت لنا أن في أدبنا القديم نصوصاً خالدة محجوبة عنا بغبار ما يثيره أداء هذا الأدب ، وخصوص هذه اللغة من أضاليل ودعوى الصعوبة والخشونة ، ويكتفي دليلاً على هذا أن تقرأ هذه القصيدة بهدوء وروية ، فتجد أنها تتسلل إلى الوجدان رويداً رويداً ، وتتابع ألفاظها وجملها رخية ندية ، راسمة بدقة حدود شخصيتين مختلفتين أشد الاختلاف ، متباعدة السلوك والطبع بعد التباين ، دون إسفاف وھبوط حين تصف الشخصية السيئة ، ودون إسراف في الفخر ، وإمعان في الخيال ، حين تصف قائلها.

٢ - صدق في التعبير ، وسمو في المقصد:

فالشاعر مر بتجربة شخصية ، صورها أصدق تصوير ، واستهدف من وراء ذلك إبراز محاسن الحلم وكظم الغيظ ومداراة ذوي الأرحام والرفق بهم ، والتنفير من الحمق والقطيعة ، والرد على الإساءة بمتلها ، والانتصار للنفس ، كل ذلك بعبارة نظيفة عالية ، تتناسب مع هذا المقصد النبيل ، بعيداً عن أسلوب الوعظ المباشر الذي تستقبله النفوس ، وتمله القلوب.

٣ - حكمة وعمق في تصوير النفس الإنسانية:

ها هو ذا الشاعر يبدو وكأنه يبوح لأحد جلسائه بتجربته ، مضطجعاً في كسر (١) بيته ، هادي النفس ، مطمئن السريرة ، لم يحب الغضب بصيرته طلباً للثار ، مقدماً بكلمة (ذى رحم) لتكون بمثابة «الحيثية» التي بنى عليها سلوكه الآتي ، حتى لا يقال له - وقد أكثر من تصبره وتذلل إزاء هذا الذي لا يستحق كل ذلك -: لقد أتعبت نفسك ، وألزمتها ما لا يلزم ؛ فإن الرحمة تستحق ذلك وأكثر منه ،

(ويبدو أن الشاعر قد قال قصيده في الإسلام ، وهذا ظاهر من تأثره بقوله تعالى: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)) في قوله: ولو لا اتقاء الرحم...).

ويستمر في تصوير الأخلاق المقابلة في هاتين النفسيين المتباينتين. حلم وطيش ، وحرص على الإغاظة وبعد عنها ، ومعاناة عند العفو وتتجاهل له ، واقتراب من هذا ، وابتعاد من ذاك ، وشتم مقدع بظهر الغيب وتنزعه عنه في كل حال ، وصلة للرحم وقطيعة لها ، وهدم يقابله بناء ، وحرص على نزول المكروه بشخص يحرص على حب الخير... الخ ، في عميق وحكمة تتواتي إلى آخر القصيدة ، في موجات متساوية متراخية ، يذوب في خلال حروف المد فيها ، وفي ثانياً «أسباب وأوتاد البحر الطويل» توتر نفس الشاعر وغيظه المكبود، إلا موجة واحدة تعلو عن أخواتها ، حاملة لنا قدرًا وافرًا من شحنة الغضب والضيق والتبرم التي لا يمنعها من الانفجار إلا تقوى الله الذي حض على صلة الأرحام والصبر على أذاهم ، وحذر من قطيعتهم ، وهي هذان البيتان:

١٠ - فلو لا اتقاء الله والرَّحْمَنِ التَّيِّرِ رعايتها حقٌّ وتعطيلها ظلم

١١ - إِذَا لَعَلَاهُ بارقي وَخَطَمْتُهُ بوسمِ شَنَارٍ لَا يُشَابِهُ وَسَمٌ

ثم تعود الموجات إلى هدوئها واستقرارها.

وبين البداية :

وذِي رَحْمٍ قَلِّمَتْ أَظْفَارَ ضَغْنَهُ بِحَلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لِهِ حَلْمٌ

والختمة:

فأطفأت نار الحرب بياني وبينه فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم

تننظم روح شعرية واحدة ، استلهمت البساطة والبعد عن التعقيد للتعبير عن نوازع النفس الإنسانية وأهوائها المتناقضة في بناء شامخ وصلب ، فالتحم البدء والختام.

لكل هذا لا تستغرب إعجاب عبد الملك بن مروان بمعن بن أوس ، حيث عده - بهذه القصيدة - أشعر الناس ، عندما سأله في ليلة كان يسرم فيها مع ولده وأهله وخاصته ، عن أحسن ما قيل من الشعر ، فأشدوا وفضلوا ، وقال بعضهم: أمرؤ القيس ، وقال بعضهم: النابغة ، وقال بعضهم: الأعشى ، فلما فرغوا قال: أشعر الناس - والله - من هؤلاء جميعاً الذي قال:... (وأنشد هذه القصيدة) (٢).

الهوا منش :

* معن بن أوس المزنبي: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وهو شاعر مجيد محسن، متين الكلام، حسن الدبياجة، فخم المعاني.

كان معاوية يفضل مزينة (قبيلة الشاعر) في الشعر ، ويقول: كان أشعر أهل الجاهلية منهم زهير ، وكان أشعر أهل الإسلام - منهم ابنه كعب و معن بن أوس.

** الغرض من هذا الشرح فهم القصيدة من أقرب طريق ، والدخول إلى معانيها بعيداً عن الأصطلاحات ، وهو لم يكتب للمختصين ، ولا من في حكمهم ، وإنما كتب لمن لا يعرفون عن الأدب العربي إلا القليل ، نظراً لظروفهم الدراسية أو المعيشية ، وخاصة من هم في ديار الغربة.

١ - جانب بيته.

٢ - الأمالي ٩٩/٢ ، زهر الآداب ، ٨١٧.

الظلم مرتعه وخيم

إعداد. محمد أحمد عبد الله

نشرت صحيفة الشرق الأوسط اليومية في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٤٠٧ هـ الخبر التالي:

«فرغت لجنة حصر منزل [رئيس عربي أفريقي سابق] بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة من أعمالها ، وأدلى مصدر موثق بمعلومات خاصة لـ [الشرق الأوسط] تنشر لأول مرة عن محتويات المنزل ، فأوضح أنها قد وضعت في ثمانية عشر صندوقاً ، يبلغ طول الواحد حوالي ستة أمتار ، وحملته تحتاج إلى رافعة ، وقال: إن فساتين زوجه قد بلغت ٤٠٠ فستان ، عدا الفساتين التي لم تستعمل بعد ، إضافة إلى ٣٨٢ ثوباً و ٢٠٠ ثوب جديد آخر لم يستعمل ، وأكثر من ٣٠٠ حذاء ، وكميّات كبيرة من العطور. وأشار المصدر إلى أن في المنزل محطة أقمار صناعية ، وجهاز التقاط لقنوات التلفزيونات الأجنبية ، وقبانية خاصة ، ومخابئ للطوارئ وسلاماً كهربائياً ، ومهبطاً لطائرة هليوكتر ، بالإضافة إلى جهاز تصوير يعمل على التقاط صور الأشخاص الذين يقتربون من المنزل. وأضاف المصدر بأن هناك كميّات كبيرة من المسابح ، والحرير ، والأباريق ، مشيراً إلى أن هناك غرفة طبية مجهزة بأحدث الأدوات الطبية ، وكميّات كبيرة من الأسلحة والبطاطين والسجاجيد التي لم تستعمل. وقال: بأن هناك كميّات من الوثائق الأمنية ، والدبلوماسية، موضحاً أن هناك أيضاً عشرين سيفاً من الذهب الخالص ، بالإضافة إلى الدروع ، والأواني الذهبية. وأضاف: إن مفاتيح المنزل أشبه بمفاتيح قارون -على حد وصف المصدر- من كثرتها ، كما توجد التلفزيونات والفيديوهات بعدد الغرف والصالات». ولنا على هذا الخبر الملحوظات التالية:

١- ذكرت صحيفة الشرق الأوسط اسم الرئيس السابق واسم زوجه.. وأشارنا عدم ذكر الاسمين ، تقديرأً لمشاعر أهل وأقرباء العائلتين ، ومن جهة ثانية ، فليس المقصود عندنا الاسم ، وإنما المقصود معالجة هذه الظواهر المرضية التي يكثر تكرارها في أماكن متعددة ، مع أننا لم نكن في يوم من الأيام من المعجبين أو المؤيدين لهذا الرئيس.

٢- مما ينبغي التأكيد عليه أن الشعب الذي كان يحكمه هذا الرئيس كان - ولا يزال - يعاني مجاعة مات بسببها عدد كبير جداً من الأطفال والشيوخ والنساء ، وقد امتدت يد المحسنين لهذا الشعب من جميع أنحاء العالم.. وبكل أسف لم يكن هذا الرئيس وبطانته أمناء في توصيل المساعدات للمنكوبين الجائعين ، وكان قد زعم ، عندما قام بانقلابه العسكري الذي جاء به إلى الحكم ، أنه جاء ليحقق العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد شعبه ، ولكن الذي حققه لشعبه: مجاعة وفقرًا وظلمًا واحتكاراً.

وبدأ الحكم فقيراً لا يملك غير مرتبه، وخرج من الحكم بعد كبير من ملايين الدولارات، كما تحدثت وكالات الأنباء والصحف العالمية والعربية ، وهذه الملايين مودعة في بنوك أوربا الغربية ، وهذا يعني أن محتوى منزله لا يساوي شيئاً أمام رصيده النقدي في البنوك الغربية ، ومع ذلك فقد كان يتظاهر بالزهد والعرفة والورع والنقوي.

٣- مصيبة المصائب أن آخر ورقة كان يتاجر بها الرئيس المخلوع هي «تحكيم الشريعة الإسلامية» ، ونصب نفسه خليفة للمسلمين ، وأول القوانين التي وضعها تضمنت عقوبات صارمة ضد الذين يعارضون نظامه ويحاولون الإطاحة به.

وخلال الفترة «الإسلامية المزعومة» كان الرئيس السابق دمية تحركها الولايات المتحدة كما تشاء ، وقد أمرته في أواخر عهده بالحكم أن يخفف من إصدار القوانين الإسلامية فاستجاب ، وأمرته

بالبطش بالدعاة الذين كانوا يتعاونون معه ففعل... وأمرته بتدبير هجرة «يهود الفلاشا» إلى فلسطين المحتلة فعل... وهناك فضائح أخرى ليس هذا موضع الحديث عنها.

٤ - وهناك سؤال يفرض نفسه بإلحاح: كيف نجمع بين المسابح والحرس والأباريق - وهذا يعني أن الصلاة كانت تقام في قصره - وبين الترف والإسراف اللذين جاوزا كل حد ، لدرجة أن المصدر الذي نقلت عنه الشرق الأوسط قال: «إن مفاتيح المنزل أشبه بمفاتيح قارون.. كيف نجمع بين هذا وذاك؟!»

جوابنا على ذلك:

إن الرئيس السابق كان لا ينكر إعجابه وإيمانه بالصوفية ، وكانت الصحف التي تجري معه مقابلات تنقل عنه مثل هذه التصريحات ، وأكثر من هذا ، فقد كان الرئيس السابق شديد الإيمان بالخرافيين والسحرة والمشعوذين ، وجاء في المذكرات التي كتبها أحد بطانته من الذين كان يستعين بهم - أموراً في غاية الغرابة.

ومن جهة أخرى فقد أقنעה مساعدوه ومستشاروه بأن للاتجاه الصوفي ثقلاً في بلده ، ويستطيع أن يستعين بهم ضد الدعاة الذين كان يتوجس منهم خيفة.

ومن جهة ثلاثة فالصوفيون - عبر شيوخهم - مستعدون لخدمة أمثال هذا الرئيس ، بل وخدمة من هم أشد سوءاً منه ، وتاريخهم الأسود في القديم والحديث يشهد على ذلك ، ومطالبهم بسيطة لا تتجاوز المال والمصالح المحدودة ، وحلقات الرقص والغناء التي يسمونها ذكرأً.

وفوق هذا وذاك فقد كان الرئيس المخلوع متافقاً ، مزاجياً ، محدود المدارك العقلية ، وغير مستبعد أنه ما كان يرى تعارضاً بين التحف التي يملكها ، والمسابح التي يوزعها على شيوخ الصوفية الذين يرتادون قصره.

٥- لا أدرى كيف يتمادي الظالمون في غيهم وظلمهم.. ولا يفكرون بأوراقهم التي ستكتشف، وأستارهم التي سوف تهتك ، وأسرارهم التي سوف تفتوح؟! وكان هذا الرئيس المخلوع قد نجا من الموت أكثر من مرة ، وتأمر عليه شركاؤه في الحكم ، ومن طبيعة هؤلاء الناس أنهم لا يثقون بمن حولهم من المساعدين والمستشارين والأعون ، ومن الأدلة على خوفه من سوء المصير وجود مخبأ للطوارئ في قصره..

ومن جهة أخرى فقد ابتلاه الله بعدة أمراض ، والمرض يذكر الإنسان بقرب أجله ، وقصر عمره.. فكيف كان هذا الرجل غير مبال لا يفكر بيوم لا ينفعه فيه قصره ولا ماله ولا حكمه؟!

لقد نُحي هذا الرئيس عن الحكم ، ومضى إلى حيث يمضي كل ظالم. وإذا كان لابد من نصيحة للدعاة في هذا الموضوع فنقول:

لن يشيد أركان هذا الدين إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصبروا على الأذى والابتلاء ، وواجهوا في سبيل الله ، وزهدوا في نعيم الدنيا وشهواتها... أما النكرات ، وأصحاب الأمزجة ، والأهواء والمصالح فنرجوا لهم الهدایة ، ونسأله أن يرزقهم التوبة وحسن الخاتمة.. وإذا تبدلت أحوالهم فجأة فلا نكذبهم بدون دليل، ولكن لا نثق بهم ، ولا نصفق لهم، ونسارع في التجمع حولهم والاستجابة لأمرهم، إذا طبوا البيعة لأنفسهم، وزعموا أنهم أصبحوا أئمة وخلفاء في هذه الأرض. لقد تركت تجربة هذا الرئيس آثارا سلبية استغلها أعداء الإسلام أبشاع استغلال ، وبكل أسف لم تكن التجربة الأولى في هذا العصر ، ولكن نرجو أن تكون التجربة الأخيرة ، ولا يسمح العاملون للإسلام للانهازين مرة أخرى استغلال الإسلام والمتاجرة به.

القضاء والقدر ومسؤولية الإنسان

الشيخ محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله نحده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعود بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيراً وذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاحد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: في هذه المقالة سنبحث في أمر مهم ، بهم جميع المسلمين ، ألا وهو: قضاء الله وقدره ، الذي ما زال النزاع فيه بين الأمة قدیماً وحديثاً ، فقد روى: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج على أصحابه وهم يتذارعون في القدر فنهاهم عن ذلك وأخبر أنه إنما أهلك من كان قبلهم هذا الجدال. ولكن فتح الله تعالى على عباده المؤمنين - السلف الصالح - الذين سلّكوا طريق العدل فيما علموا وفيما قالوا ، وذلك أن قضاء الله وقدره هو من مقتضى ربوبيته تبارك وتعالى التي هي أحد أقسام التوحيد الثلاثة التي قسم أهل العلم ألا وهي: توحيد الألوهية: وهو إفراد الله تعالى بالعبادة. وتوحيد الربوبية: وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير. وتوحيد الأسماء والصفات: وهو توحيد الله بأسمائه وصفاته. فالإيمان بالقدر من مقتضى ربوبية الله عز وجل، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله، لأنه من قدرته ومن عمومها بلا شك وهو أيضاً سر الله تعالى المكتوم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وبحمده؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ في الكتاب المكون الذي لا يطلع عليه أحد ، ونحن لا نعلم بما قدره الله تعالى لنا أو علينا ، أو بما قدره في مخلوقاته إلا بعد وقوعه أو الخبر الصادق عنه. إن فرق الأمة - هذه الأمة الإسلامية - انقسموا في القدر إلى ثلاثة أقسام:

فقسم غالوا في إثباته وسلبوا العبد قدرته و اختياره ، وقالوا: إن العبد ليس له قدرة ولا اختيار ، إنما هو مصير لا مخير ، ولا فرق بين فعل العبد الواقع ب اختياره ، وبين فعله الواقع بغير اختياره ، ولا شك أن هؤلاء ضالون ، لأنه مما يعلم بالضرورة من الدين والعقل والعادة أن الإنسان يفرق بين فعل الاختيار وبين فعل الإجبار.

قسم آخر غالوا في إثبات قدرة العبد و اختياره ، حتى نفوا أن يكون الله تعالى مشيئة أو اختيار أو خلق فيما يفعله العبد ، وزعموا أن العبد مستقل بعمله ، حتى غلا طائفه منهم وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العباد إلا بعد أن يقع منهم وهؤلاء أيضاً غالوا وتطرروا تطرفاً عظيماً في إثبات قدرة العبد و اختياره ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ، وسلك القسم الثالث أهل السنة والجماعة في ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعي والدليل العقلي ، وقالوا: إن الأفعال التي يحدثها الله تعالى في الكون تنقسم إلى فسمين:

القسم الأول:

ما يجريه الله تبارك وتعالى من فعله في مخلوقاته لهذا لا اختيار لأحد فيه ، كإنزال المطر وإنبات الزرع وكالإحياء والإماتة والمرض والصحة وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تشاهد في مخلوقات الله ، فإن هذه بلا شك ليس لأحد فيها اختيار وليس لأحد فيها مشيئة ، وإنما المشيئة فيها الله الواحد القهار.

والقسم الثاني:

ما يفعله الناس بل ما تفعله الخلائق كلها من ذات الإرادة فإن هذه - أعني هذه الأفعال - تكون باختيار فاعليها وإرادتهم؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل ذلك إليهم، قال الله تعالى: ((إِنَّمَا شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُ)) وقال تعالى: ((مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)). والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختيار ، وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار ، الإنسان ينزل من السطح في السلم نزولاً اختيارياً يعرف أنه مختار ، ولكنه يسقط هاوياً من السطح ويعرف أنه ليس مختاراً لذلك ، ويعرف الفرق بين الفعلين ، وأن الثاني إجبار والأول اختيار ، وكل إنسان يعرف ذلك ، كذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض سلس البول فكان البول يخرج منه بغير اختيار ، وإذا كان سليماً من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره ، ويعرف الفرق بين هذا وبين هذا ، ولا أحد ينكر الفرق بينهما ، وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختيارياً وبين ما يقع اضطراراً وإجباراً ، بل إن من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو من جنس ما يقع باختيار العبد ولكنه يكتب بغير اختياره ، أي أنه لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسي والنائم ، يقول الله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ((وَنَقَلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَاءِ)) وهم الذين يتقلبون ولكن الله تعالى نسب الفعل إليه ؛ لأن النائم لا فعل له ولا اختيار له ، فنسب فعله إلى الله عز وجل ، ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ؛ فإنما أطعمه الله وسقاه" ، فنسب هذا الإطعام وهذا الإسقاء إلى الله عز وجل ؛ لأن الفعل وقع منه بغير ذكر فكانه صار بغير اختياره. كلنا يعرف الفرق بين ما يجده الإنسان من ألم بغير اختياره ، وما يجده من خفة في نفسه أحياناً بغير اختياره ، ولا يدري ما سببه ، وبين أن يكون الألم هذا ناشئاً من فعل هو الذي اكتسبه أو هذا الفرح ناشئاً من فعل هو الذي اكتسبه ، وهذا الأمر والله الحمد أمر واضح لا غبار عليه.

إننا لو قلنا بقول الفريق الأول - الذين غالوا في إثبات القدر - لبطلت الشريعة من أصلها، لأنه في الحقيقة إذا قلنا: إن فعل العبد ليس فيه اختيار صار لا يحمد على فعل محمود، ولا يلام على فعل مذموم؛ لأنه في الحقيقة بغير اختياره وبغير إرادة منه ، وعلى هذا فالنتيجة إذا أن الله تبارك وتعالى يكون ظالماً لمن عصاه إذا عاقبه وعذبه على معصيته ؛ لأنه عاقبه على أمر لا اختيار له فيه ولا إرادة ، وهذا بلا شك مخالف للقرآن صريحاً. يقول الله تبارك وتعالى: ((وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَ عَيْدٍ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمْ كُلَّ كَفَّارَ عَنِّي (٢٤) مَنَّاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِ مُرْبِي (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ فَأَلْقَيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَنَاهُ وَلَكَنَ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقُولُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ)) ، فيبين سبحانه أن هذا العقاب منه ليس ظلماً بل هو كمال العدل ؛ لأنه قدم إليهم بالوعيد ، وبين لهم الطرق ، فيبين لهم الحق وبين لهم الباطل ، ولكنهم اختاروا لأنفسهم أن يسلكوا طريق الباطل ، فلم يبق لهم حجة عند الله عز وجل. لو قلنا بهذا القول الباطل لبطل قول الله تعالى. ((رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ))، فإن الله تبارك وتعالى نفي أن يكون للناس حجة بعد إرسال الرسول ، لأنهم قاموا عليهم الحجة بذلك ، ولو كان القدر حجة لهم وكانت هذه الحجة باقية حتى بعد بعث الرسول ؛ لأن قدر الله لم يزل ولا يزال موجوداً قبل إرسال الرسول وبعد إرسال الرسول: إذن فهذا القول تبطله النصوص ويبطله الواقع ، كما فصلنا في الأمثلة السابقة.

أما من غالوا في إثبات العبد فعل العبد وأنه مستقل به فإن هؤلاء أيضاً ترد عليهم النصوص والواقع ، ذلك لأن النصوص صريحة في أن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله عز وجل ((إِنَّمَا شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩))) ، ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)) ، ((وَاللَّهُ

يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ)) ، والذين يقولون بهذا القول هم في الحقيقة مبطلون لجانب من جوانب الربوبية ، وهم أيضاً مدعون بأن في ملك الله تعالى ما لا يشاء ولا يخلقه ، والله تبارك وتعالى شاء لكل شيء ، خالق لكل شيء ، مقدر لكل شيء ، وهم أيضاً مخالفون لما يعلم بالاضطرار من أن الخلق كله ملك الله عز وجل ، نواته وصفاته لا فرق بين الصفة وبين الذات ، ولا بين المعنى وبين الجسد، إذن فالكل الله عز وجل ، ولا يمكن أن يكون في ملكه ما لا يريده تبارك وتعالى ، ولكن يبقى علينا إذا كان الأمر راجعاً إلى مشيئة الله تبارك وتعالى وأن الأمر كله بيده. فما طريق الإنسان إذن وما حيلة الإنسان إذا كان الله تعالى قد قدر عليه أن يضل ولا يهتدى؟

نقول - الجواب عن ذلك :- إن الله تبارك وتعالى إنما يهدي من كان أهلاً للهداية ، ويضل من كان أهلاً للضلال ؛ يقول الله تبارك وتعالى: ((فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)) ، ويقول تعالى: ((فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّثْقَلُهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًا مَّمَّا ذَكَرُوا بِهِ)).

في حين الله تبارك وتعالى أن أسباب إضلاله لمن ضل إنما هو بسبب من العبد نفسه ، والعبد كما أسلفنا قريباً لا يدرى ما قدر الله له ؛ لأنه لا يعلم بالقدر إلا بعد وقوع المقدور فهو لا يدرى هل قدر الله له أن يكون ضالاً، أم أن يكون مهتدياً ، فما باله يسلك طريق الضلال، ثم يحتاج بأن الله قدر له ذلك ، أفالاً يجدر به أن يسلك طريق الهداية ثم يقول: إن الله تعالى قد هداني للصراط المستقيم، أحق له أو أيجدر به أن يكون حيراً عند الضلالة، وأن يكون قدرياً عند الطاعة؟! كلا لا يليق بالإنسان أن يكون حيراً عند الضلالة والمعصية، فإذا ضل أو عصى الله قال: هذا أمر كتب علىي ، وقدر عليّ ، ولا يمكنني أن أخرج عما قضى الله وقدر ، وإذا كان في جانب الطاعة ووفقه الله تعالى للطاعة والهداية زعم أن ذلك منه ، ثم من به على الله وقال: أنا أتيت به من عند نفسي فيكون قدرياً في جانب الطاعة ويكون حيراً في جانب المعصية. هذا لا يمكن أبداً، فالإنسان في الحقيقة له قدرة وله اختيار ، وليس بباب الهداية بأخفى من باب الرزق وبأخفى من أبواب طلب العلم ، والإنسان نحن نعرف جميعاً أنه قد قدر له ما قدر من الرزق ومع ذلك هو يسعى بأسباب الرزق ، يسعى بها في بلده وخارج بلده ويميناً وشمالاً ، ليس يجلس في بيته ويقول: إن قدر لي رزق فإنه يأتيوني ، تجده يسعى بأسباب الرزق مع أن الرزق نفسه مقررون بالعمل ، كما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه :- "إن أحكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، و عمله، وشققي ألم سعيد ".

هذا الرزق أيضاً مكتوب كما أن العمل من صالح أو سيئ مكتوب ، فكذلك الرزق بما بالك أنت تذهب يميناً وشمالاً وتجوب الأرض والفيافي لطلب الرزق ولا تعمل عملاً صالحأ لطلب رزق الآخرة بدار النعيم ، إن البابين واحد وليس بينهما فرق ، فكما أنك تسعى لرزقك ، وتسعى لحياتك وامتداد أجلك ، إذا مرضت بمرض ذهبتك إلى أقطار الدنيا تريد الطبيب الذي يداوي مرضك ومع ذلك فإن لك ما قدر من الأجل لا يزيد ولا ينقص، لست تصمت على هذا وتقول: سابق في بيتي مريضاً طريحاً ، وإن قدر الله لي أن يمتد الأجل امتد ، نجده تسعى بكل ما تستطيع من قوة وبحث لتبحث عن الطبيب الذي ترى أنه أقرب الناس إلى أن يقدر الله الشفاء على يديه ، إذاً لماذا لا يكون طريقك في عمل الآخرة وفي العمل الصالح كطريقك فيما تعمل للدنيا ، وقد سبق أن قلنا: إن القضاء سر مكتوم لا يمكن أن تعلم عنه ، فأنت الآن بين طريقين: طريق يؤدي بك إلى الفوز والسلامة ، وطريق يؤدي بك إلى الهالك والعطاب ، وأنت الآن واقف بينهما ومخير ليس أمامك من يمنعك من هذا الطريق اليمين ، ولا من هذا الطريق الشمالي ، وإذا شئت ذهبتك إلى هذا ، وإذا شئت ذهبتك إلى هذا ، فما بالك تسلك

الطريق الشّمال ثُم تقول: إِنَّهُ قَدْ قَدِرَ عَلَيّْ ، أَفَلَا يُلِيقُ بِكَ أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقَ الْيَمِينِ وَتَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ قَدِرَ لِي ، لَوْ أَنِّكَ أَرَدْتَ السَّفَرَ إِلَى الرِّيَاضِ ، وَكَانَ أَمَامُكَ طَرِيقَانِ ، أَحَدُهُمَا مَعْبُدٌ قَصِيرٌ ، وَالثَّانِي غَيْرُ مَعْبُدٍ وَطَوِيلٌ لَوْجَدْنَا أَنَّكَ تَخْتَارُ الْمَعْبُدَ الْقَصِيرَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَلَا تَذَهَّبَ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَيْسَ بِمَعْبُدٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ ، هَذَا الطَّرِيقُ الْحَسِيُّ إِذْنَ ، فَالْطَّرِيقُ الْمَعْنَوِيُّ مَوَازِنٌ لَهُ وَلَا يَخْتَلُ عَنْهُ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ وَأَهْوَاءَهَا هِيَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي الْعُقْلِ وَتَغْلِبُ عَلَى الْعُقْلِ ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عُقْلَهُ غَالِبًا عَلَى هُوَاهُ ، وَهُوَ إِذَا حَكَمَ عُقْلَهُ فَالْعُقْلُ بِالْمَعْنَى الصَّحِيفُ يَعْقُلُ صَاحِبَهُ عَمَّا يَضْرُهُ وَيُدْخِلُهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ وَيُسْرُهُ . بَعْدَ هَذِهِ الْمُقْدَمَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسِيرُ فِي عَمَلِ الْإِخْتِيَارِيِّ سِيرًا اخْتِيَارِيًّا لَيْسَ إِجْبَارِيًّا وَلَا اضْطَرَارِيًّا ، وَأَنَّهُ كَمَا يَسِيرُ لَعْلَهُ دُنْيَا سِيرًا اخْتِيَارِيًّا ، وَهُوَ إِنْ شَاءَ جَعَلَ هَذِهِ الْسُّلْعَةَ تِجَارَتَهُ أَوْ الْسُّلْعَةَ الْأُخْرَى أَوِ التَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ ، فَكَذَلِكَ أَيْضًا هُوَ فِي سِيرِهِ إِلَى الْآخِرَةِ يَسِيرُ سِيرًا اخْتِيَارِيًّا ، بَلْ إِنْ طَرِيقَ الْآخِرَةِ أَبْيَنَ بِكَثِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الدُّنْيَا ، لَأَنَّ الَّذِي بَيْنَ طَرِيقَيِّ الْآخِرَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ طَرِيقَ الْآخِرَةِ أَكْثَرَ بَيَانًاً وَأَجْلَى وَضْوَحاً مِنْ طَرِيقِ الدُّنْيَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ الدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ ضَامِنًاً لِنَتَائِجِهَا .. وَيَدْعُ طَرِيقَ الْآخِرَةِ الَّتِي نَتَائِجُهَا مَضْمُونَةٌ ؛ لَأَنَّهَا ثَابَتَةٌ بِوَعْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ تَبارُكُ وَتَعَالَى لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ .

بعد هذه المقدمة نقول:

إِنَّ أَهْلَ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ قَرَرُوا هَذَا وَجَلَوْهُ عَقِيدَتِهِمْ وَمَذَهَبَهُمْ . إِنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعُلُ بِالْإِخْتِيَارِ وَإِنَّهُ يَسِيرُ كَمَا يَرِيدُ ، وَلَكِنْ إِرَادَتِهِ وَإِخْتِيَارَهُ تَابِعَةٌ لِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيَّتِهِ ، ثُمَّ يُؤْمِنُ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ بِأَنَّ مَشِيَّتَهُ تَابِعَةٌ تَابِعَةٌ لِحَكْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ مَشِيَّتَهُ مَشِيَّةً مَطْلَقَةً مُجْرَدَةً ، وَلَكِنَّهَا مَشِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِحَكْمَتِهِ ؛ لَأَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: ((الْحَكِيمُ)) ، وَالْحَكِيمُ هُوَ: الْحَاكِمُ الْمُحْكُمُ الَّذِي يَحْكُمُ الْأَشْيَاءَ كَوْنًا وَشَرْعًا وَيَحْكُمُهَا عَمَلاً وَصَنْعًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِحَكْمَتِهِ يَقْدِرُ الْهَدَايَةَ لِمَنْ أَرَادَهَا ، لَمَنْ يَعْلَمْ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَرِيدُ الْحَقَّ وَأَنَّ قَلْبَهُ يَرِيدُ الْإِسْتِقَامَةَ ، وَيَقْدِرُ الْضَّلَالَةَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، لَمَنْ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ يَضِيقُ صَدْرُهُ كَأَنَّمَا يَصْعُدُ فِي السَّمَاءِ ، فَإِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَبارُكُ وَتَعَالَى تَأْبِي أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ الْمَهْتَدِينَ ، إِلَّا أَنْ يَجْدُدَ اللَّهُ لَهُ عَزَمًا وَيَقْلِبَ إِرَادَتَهُ إِلَى إِرَادَةِ أُخْرَى ، فَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَلَكِنْ حِكْمَةَ اللَّهِ تَأْبِي إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَسْبَابَ مَرْبُوْتَةً بِهَا مَسْبِبَاتِهَا .

يَقُولُ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ: إِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ:

وَهِيَ أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ إِيمَانًا جَازِمًا بِأَنَّ اللَّهَ تَبارُكُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ فَعْلِهِ أَوْ مِنْ فَعْلِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ .

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الْثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَرْتَبَةُ الْكِتَابَةِ:

وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَبارُكُ وَتَعَالَى كَتَبَ عَنْهُ فِي الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ هَاتِنِيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ((أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)). فَبِدَا بِالْعِلْمِ وَقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلْمَ، قَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّي، مَاذَا أَكْتُبْ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". وَلِهَذَا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: عَمَّا نَعْمَلُهُ، أَشْيَاءَ مُسْتَقِبَلٍ أَمْ شَيْءًا قُدِّضَ وَفَرَغَ مِنْهُ . فَقَالَ: "إِنَّهُ قُدِّسَ قَضَى" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَكَلَّ؟ قَالَ: "أَعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَرٍ لَمَا خَلَقَ لَهُ". فَقَالَ لَهُمْ

الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "اعملوا". فأنت يا أخي اعمل ؛ فأنت ميسر لما خلقت له. ثم تلا قوله تعالى. ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخْلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى)). هاتان المرتبتان: العلم والكتابة.

أما المرتبة الثالثة: فهي مرتبة المشيئة:

معنى: أن الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معهود في السموات أو في الأرض ، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله ، ولا عدم معهود إلا بمشيئة الله ، وهذا ظاهر في القرآن الكريم ، وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله ، ومشيئته في فعل العباد ؛ فقال الله تعالى: ((لَمَنْ شَاءْ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)). وقال تعالى: ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَوْهُ)) ((وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلَوْهُ)) أية أخرى ، وقال تعالى: ((وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)) ، فبين تعالى أن فعل الناس كان بمشيئة الله ، وأما فعله تعالى فتعليقه بالمشيئة كثير ، قال الله تعالى: ((وَلَوْ شَيْنَا لَاتَّيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)) ، ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)). إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى ، فإذاً لا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة وشاملة لكل موجود أو معهود مما من معهود إلا وقد شاء الله عدمه ، وما من موجود إلا قد شاء الله تعالى وجوده ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق:

أي أن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء بما من موجود في السموات والأرض إلا الله خلقه ، حتى الموت يخلق الله تبارك وتعالى ، وإن كان هو عدم الحياة ، يقول تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِبَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)) ، فكل شيء في السموات أو في الأرض فإن الله تعالى خالقه ، ولا خالق إلا الله ، وكلنا نعلم أن ما يقع من فعله تعالى فإنه مخلوق له ، فالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح كلها نعرف أنها مخلوقة من مخلوقات الله ، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات ، أحوال كلها مخلوقة لله عز وجل ، ولكن قد يشكل على المرء كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري: إنه مخلوق لله عز وجل ، نقول: نعم ، يصح أن نقول ذلك ؛ لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرتين ، أحدهما: القدرة ، والثاني: الإرادة ، فإذا كان فعل العبد ناتجاً عن إرادته وقدرته فإن الذي خلق هذه الإرادة ، وجعل قلب الإنسان قابلاً لهذه الإرادة هو الله عز وجل ، وكذلك أيضاً الذي خلق فيه القدرة هو الله عز وجل ، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب ، نقول: إن خالق السبب التام خالق للمسبب. أي أن خالق المؤثر خالق للأثر ، خالق السبب خالق للمسبب ، فوجه كونه تعالى خالقاً لفعل العبد نقول: إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرتين هما: الإرادة ، والقدرة ؛ لو لا الإرادة لم يفعل ، ولو لا القدرة لم يفعل ؛ لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل ، وإذا كان قادراً ولم يرد لم يكن الفعل ، فإذا كان الفعل ناتجاً عن إرادة جازمة وقدرة كاملة ، فالذي خلق الإرادة الجازمة وقدرة الكاملة هو الله ، وبهذا الطريق عرفنا كيف يمكن أن نقول: إن الله تعالى خالق لفعل العبد ، وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة فهو المتطهر ، وهو المصلي ، وهو الصائم ، وهو المزكي ، وهو الحاج ، وهو المعتمر ، وهو العاصي ، وهو المطيع ، ولكن هذه الأفعال كلها كانت وجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل ، وبهذا علم كيف يكون الإنسان ، وكيف يكون فعل الإنسان مخلوقاً لله عز وجل. والامر - والله الحمد - واضح ، ولو لا أن التساؤلات كثرت ، ولو لا أن الأمر اشتبه على كثير من الناس لكننا نقول: إن الخوض في هذا ، نوع من فضول القول ، ولكن نظراً إلى أن الأهواء انتشرت وكثرت ، وصار الفاسق يريد أن يبرر فسقه بشيء يقدره في ذهنه ، ولو تدبر الأمر لوجد أنه على خلاف ما قدره في ذهنه ، لو لا هذا ما تكلمنا في هذا الأمر.

إذن القدر والإيمان بالقدر يكون له مراتب أربع ، المرتبة الأولى: العلم ، والثانية: الكتابة ، والثالثة: المشيئة ، والرابعة: الخلق ، كل هذا يجب أن يثبت الله عز وجل ، وهذا لا ينافي أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوي الإرادة ، كما أتنا نقول: النار تحرق ، والذي خلق الإحرار فيها هو الله بلا شك، ليست محرقة بطبيعتها ، بل هي محرقة تكون الله تعالى جعلها محرقة ، ولهذا النار التي ألقى فيها إبراهيم لم تكن محرقة ؛ لأن الله تعالى قال لها: ((كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)) ، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم ، فالنار لذاتها لا تحرق ، ولكن لأن الله خلق فيها قوة الإحرار ، قوة الإحرار هي مقابل فعل العبد ، كإرادة العبد وقدرته ، فبالإرادة والقدرة يكون الفعل ، وبالمادة المحرقة في النار يكون الإحرار فلا فرق بين هذا وهذا ، ولكن العبد لما كان له إرادة وشعور و اختيار و عقل صار الفعل ينسب إليه حقيقة و حكمًا ، وصار مؤاخذاً بالمخالفة ، معاقباً عليها ؛ لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار ، وأخيراً نقول: إن على المؤمن أن يرضي بالله تعالى ربًا ، ومن تمام رضاه بالربوبية أن يؤمن بقضائه وقدره ، ويعلم أنه لا فرق في هذا بين الأعمال التي يعملها وبين الأرزاق التي يسعى لها ، وبين الآجال التي يدافعها ، الكل بابه سواء ، والكل مكتوب ، والكل مقدر ، والإنسان ميسر لما خلق له..

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من يُيسّرون لعمل أهل السعادة ، وأن يكتب لنا ولكم الصلاح في الدنيا والآخرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

خواطر في الدعوة بين الدفاع والأصالة

محمد العبدة

لا يزال بين المسلمين اليوم من يعيش بعقلية الأربعينات والخمسينات، حين كانت الهجمة على الإسلام والمسلمين على أشدتها، وكان الذي يتولى كبرها المستشرقون والمبشرون والأحزاب العلمانية ، وكان موقف كثير من المسلمين هو موقف المدافع عن نفسه دفاع المتهم الذي بداخله شيء من الانهزامية ، أو عنده عقدة نقص تجاه كل ما يأتي من الغرب أو الشرق أو من الأحزاب التي تسمى نفسها: (تقدمية).

يومها قالوا عن الإسلام: إنه استبدادي النزعة ، فرد عليهم البعض بأنه (ديمocrاطي) فيه كل مبادئ الديمقراطية ، وقالوا: إن بلاد الإسلام فتحت بالسيف والقوة ، وأن المسلمين كانوا أصحاب ولوغ في الدماء، فقيل لهم: لا .. إننا لا نهاجم أحداً ولا نفتح البلدان ، بل ندافع عن أنفسنا فقط إذا ما هوجمنا من الخارج ، وهذا هي بلاد أندونيسيا وماليزيا ، ودول وسط أفريقيا قد دخلها الإسلام بواسطة التجارة أو الدعاء.

وقيل عن تعدد الزوجات والطلاق ومشاكل المرأة الكثير.. وكتبت المجلدات ، وحررت المقالات في الرد على هذه الاتهامات ولكن بمنطق المنهزم أمام هذا الهجوم الماكر ، وكان الرد أن التعدد فقط للضرورة ، وأن الإسلام أعطى كل شيء للمرأة وأنها نصف المجتمع.. الخ. هذا الكلام الذي بعضه صحيح وبعضه خطأ.

ولا يزال المسلمون - من يعيشون بيننا - إذا عرضوا الإسلام على الآخرين يعرضونه على استحياء. وقد يتكلم أحدهم عن تقارب الأديان إذا ما دخل في مناقشة مع نصراني مثلاً ، أو أن

الإسلام لا يكره أو يحرم بعض الأشياء المکروھة أو المحرمة فعلاً. إذا ما دخل في جدال مع أصحاب الترخيص والتساھل.

هذا الموقف الضعيف ، كنا نعتقد أنه انتهى أو يجب أن ينتهي ولا حاجة لإعادة الردود واجتار هذه الأشياء ، لقد انتقل المسلمون إلى الشعور بالثقة وبالأسالة وبموقف المهاجم وليس المدافع ، وقد كان للعلماء والدعاة في هذا العصر أثر في توليد هذه الثقة ، ومن أبرزهم: الداعية الشهيد سيد قطب - رحمة الله -، ولكن سمعت وقرأت أخيراً لبعض الإسلاميين في موضوع الأسرة والمرأة ما يعود بنا القهري إلى الوراء ، وكأننا متهمون بظلمها ، ومتهمون بأننا لا نعطيها الحرية التي يريد لها أعداء الإسلام ، فيقدم طيبوا القلب ليعطواها أكثر مما جبلت عليه وخلق لها ، ونحن ليس عندنا مشكلة اسمها مشكلة المرأة ، فالله سبحانه خلق الخلق لعبادته وكل ميسر لما خلق له ، وكل له مهمة في هذه الحياة ورحم الله امراً عرف قدر نفسه ، أما معاكسة الفطرة التي خلق الله الخلق عليها فسيكون من بعدها الدمار.

أما الموضوع الآخر الذي يخجلون منه فهو الجهاد ، وينسون أنه ذروة سنام الإسلام ، وقد شرعه الله لنا وحضرنا عليه ، وهو من خصائص هذه الأمة ، وهو جزء من الدعوة ، وبالجهاد والفتح يتعرف الناس على الإسلام عملياً ونظرياً. فهو رحمة وليس قسراً ، وأكثر البلاد الإسلامية اليوم فتحت بالجهاد ، فهل نخجل من شرع شرعه الله لنا ، والناس يفتخرن بزبالة أفكار ماركس وأمثاله. إن القرآن الكريم علمنا كيف نرد على الكفار اتهاماتهم وكيف نهاجمهم بدل أن نضع أنفسنا في قفص الاتهام. قال تعالى راداً على قريش قولها: إن المسلمين انتهكوا حرم شهر الحرام وقتلوا وأسروا - وقد وقع هذا في سرية عبد الله بن جحش عندما أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم - في مهمة استطلاعية للتعرف على أحوال مكة وما حولها - قال تعالى: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ قُلْنَ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقُتْلِ...)) الآية [البقرة: ٢١٧].

ومعنى الآية: إذا كان القتال في شهر الحرام كبيراً فعلاً ولا يجوز فأنت فعلتم أكبر من هذا ، آخر جنم المسلمين من البلد الحرام ، بل فعلتم ما هو أشنع وهو الكفر بالله ، والصد عن سبيله ، وفتنة المؤمنين عن دينهم ، هذا هو أدب القرآن في مناقشة الخصوم ، ولكن بعض الناس يحرفون النصوص الواضحة كي لا يغضب غير المسلمين وحتى ظهر أننا في غاية التهذب والرقابة والمسكنة!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

تركيا المسلمة تتحدى أتاتورك

إعداد. محمد أحمد عبد الله

أراد كمال أتاتورك قبل ستين عاماً أن تكون تركيا دولة علمانية ، لا تدين بدين من الأديان.. وكان بعمله هذا ينفذ مؤامرة يهودية صليبية خطط لها قبل عدة قرون ، وتحطمت مخططاتهم طوال تلك المدة حتى جاء اليهودي «أتاتورك» وتستر وراء شعارات كاذبة ، كالتقدمية ، والقومية ، والتحضر ، وفي غيبة الوعي الإسلامي، وغيبة الرجال الأفذاذ الذين يتجمعون على الحق ، ويعرفون كيف يحبطون مؤامرات ومكائد العدو.. أقول في غيبة هؤلاء الرجال أقدم أتاتورك وزبانيته على هدم الخلافة الإسلامية ، واستبدال الحروف العربية بحروف لاتينية ، وأمر الناس بحلق لحاهم ، كما أمر النساء بخلع الحجاب ، ونكل بالعلماء والدعاة إلى

الله ، ومنع الأذان بالعربية ، وبعد هلاك الطاغية كمال أتاتورك سار إخوانه وتلامذته من الاتحاديين وقاده الجيش وصنائع الغرب على نهجه ..

وطن الطغاة أنه لن تقوم للإسلام قائمة في تركيا المسلمة بعد الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل كيدهم وأضل سعيهم.

ويحدثنا القادمون من تركيا عن مظاهر طيبة يرونها تثلج صدور المؤمنين وتبعث الأمل في النفوس.. يحدثنا القادمون عن تمسك الشباب بدينهن ومحافظتهم على صلاة الجمعة في المساجد ، وعن التزام الفتيات بالحجاب الإسلامي في الجامعات والمعاهد ، كما يحدثنا القادمون عن عواطف الأتراك الجياشة نحو إخوانهم العرب الذين يزورون تركيا ، وبشكل أخص الملتحين منهم الذين يتربدون على المساجد.

وباتت الحية والحجاب من أشد المخاطر التي تهدد زبانية أتاتورك ، وقد صدرت الأوامر بمنع الحجاب في الجامعات التركية ، بل ومن شروط الالتحاق بالجامعة حلق اللحى بالنسبة إلى الرجال ، ووجوب سفور الفتيات ، وقد واجه المسلمون هذه الظواهر الخطيرة بحزم وقوة ، ولنترك المجال لصحيفة «ديرشبيجل الألمانية» الصادرة في أوائل شهر فبراير الماضي تتحدث عن الصحة الإسلامية في تركيا تحت عنوان «إنهم يتحدون أتاتورك».

«إن موجة التجديد الإسلامي باتت تتحدى تراث أتاتورك ، وقالت سعاد مير الطالية في الاستشراق التركي ، بجامعة اسطنبول: (إن الله أمرنا بتغطية الرأس ، ولا يجوز أن يظهر غير الوجه والقدمان وكفا اليد ، ولهذا السبب من واجبنا الديني أن نضع غطاء الرأس ، وفي حال حظره علينا سوف أغادر الجامعة). وانبرت صديقتها حنيفه أوجلو ، الطالبة في الفلسفة لتاييدها بالقول: إنني أحب الدراسة لكن إذا منع غطاء الرأس يجب أن أمضي في سبيلي.

إن الشابات التركيات ساختات على مرسوم منع الحجاب وغطاء الرأس في حرم ٢٨ جامعة تركية ، وابتداء من أول هذا العام ، ولا يسمح للطلبة الذكور بولوجها بلحية ؛ لأن هذه علامة ظاهرة على التزمت الديني الإسلامي.

وكل من يخالف هذا المنع يتلقى إنذاراً في البداية ، ثم يحظر عليه حضور المحاضرات الجامعية ، ويفصل من الجامعة.

ويستند المرسوم الجديد لقرار من المحكمة الإدارية العليا مفاده أن التحجب بكل أنواعه مخالف للدستور ؛ لأنه موجه ضد النظام الاجتماعي العلماني للجمهورية التركية.

وقد اعترف الرئيس التركي كنعان إفرين بانتشار الحجاب واللحية في الجامعات يقول: «توجد أصولية في تركيا هي خطوة على جمهوريتنا العلمانية مثل الشيوعية والفاشية»..

وقد اتضحت عودة الروح الدينية إلى تركيا المسلمة بمعدل ٩٩ بالمائة من سكانها عندما تظاهر خمسة آلاف شخص بعد صلاة الجمعة في جامع بايزيد في اسطنبول في منتصف الشهر الماضي ، وهتفوا من أجل (تركيا إسلامية) وحملوا على أكتافهم نجم الدين أربكان رئيس حزب الخلاص الوطني. إن المطالبة بإعادة الدولة الدينية تستهدف صرح تركيا الحديثة التي أسسها كمال أتاتورك عندما فصل بلاده عن الماضي العثماني لكي تلحق بر Kapoor العالم (الحديث) ، فاللغى الخلافة ، وفصل الدولة عن الدين ، واستبعاد عن الخط العربي بالحروف اللاتينية ، وقام بثورة ثقافية ، وفرض تحديداً متطرفاً قضى على الحجاب واللحية والطربوش الذي كان إلزاماً لكل موظفي الدولة. ومنذ ذلك الحين يعتبر الجيش نفسه حارساً لتراث الرفيق العسكري أتاتورك ، وكلما ساوره الظن بأن الدولة والدستور في خطر استولى على الحكم ، وأعاد النصاب إلى النصاب الذي يفهمه هو.

لُكَ العَسْكَرِيُّونَ بِالذَّاتِ سَاعَدُوا التَّجْدِيدَ الْإِسْلَامِيَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَلَى الظَّهُورِ الْحَاسِمِ عَنْدَمَا وَافَقُوا عَام ١٩٨٢ عَلَى بَنْدِ دُسْتُورِيِّ أَوْكَلَ إِلَى الدُّولَةِ الإِشْرَافَ عَلَى تَعْلِيمِ الدِّينِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْذَ اَتَّا تُورُكُ ، وَسَرَعَانَ مَا شَقَتِ الرُّوحُ الْدِينِيَّةُ الْمَكْبُوتَةُ طَرِيقَهَا وَزَادَ عَدْدُ الْمَعَاہِدِ الْدِينِيَّةِ مِنْ اثْنَيْنِ عَامَ ١٩٨٠ ، إِلَى ثَمَانِيَّةِ مَعَاہِدٍ . وَتَرِيدُ حُكُومَةُ تُورْجُوتُ أَوْزَالَ الْمَحَافَظَةَ إِنْفَاقَ ٨٠ مَلِيُونَ دُولَارَ هَذَا الْعَامَ عَلَى تَدْرِيسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَيَنْبَغِي مِنْذَ بَدَائِيَّةِ الشَّهْرِ الْقَادِمِ أَنْ يَرْتَادَ الْأَطْفَالُ الْمُسْكِيَّيُونَ أَيْضًاً دُرُوسَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَبَعْدَ اَتَّا تُورُكَ بِسَتَّةِ عَقُودٍ زَمْنِيَّةٍ يَتَبَيَّنُ الْآنُ أَنَّ مَوْسِى تُرْكِيَا الْحَدِيثَةَ اسْتَخَفَ بِمَتَطَلَّبَاتِ شَعْبِهِ الْدِينِيَّةِ ، وَقَدْ حَقَّ الْمَتَقْفُونَ الْأَتْرَاكُ الْلَّاحِقُ الْفَكَرِيُّ بِأَوْرَبَا لَكِنَ جَمَاهِيرُ الشَّعْبِ لَمْ تَسْتَطِعُ الْلَّاحِقَ بِهِمْ ، وَقَامَتِ الْعَلَمَانِيَّةُ فِي تُرْكِيَا فَوْقَ فَرَاغِ أَدَى فِي السَّنَوَاتِ الْأُولَى لِلْجَمْهُورِيَّةِ إِلَى أَزْمَةِ فِي الْهُوَيَّةِ ، بِسَبِيلِ رَفْضِ الْفَكَرِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُتَرَاكِمِ ؛ لَأَنَّ إِسْلَامَ كَانَ جَزءًاً جَوْهَرِيًّا مِنْ تَفْهُمِ الْذَّاتِ الْتُرْكِيَّةِ ، فَالشِّعْرُ وَالْفُولَكُلُورُ مَتَطَبِّعَيْنِ بِبَيْئَةِ إِسْلَامِيَّةٍ ، وَالْمُوسِيَّقِيُّ ظَلَّتْ شَرْقِيَّةً ، وَقَوَانِينِ الْآدَابِ وَالْأَعْرَافِ بَقِيَّتْ إِسْلَامِيَّةً ، وَلَا سِيمَا فِي الْأَرِيَافِ .

إِنَّ دُورَ رَئِيسِ الْحُكُومَةِ فِي الْخَلَافِ حَوْلَ تَرَاثِ اَتَّا تُورُكَ الْعَلَمَانِيِّ هُوَ عَلَى الْأَقْلَ مَوْضِعٌ شَكٌ ، فَهُوَ يَنْكِرُ وَجُودَ رَجُعِيَّةِ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا مَلْمُوسَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَلَادِ . وَهُوَ نَفْسُهُ مُسْلِمٌ مُتَبَعِّدٌ وَكَانَ الْمَعْلُومُ فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ يَلْقَنُونَ الْأَطْفَالَ بِأَنَّ الصَّدَاقَةَ بَيْنَ الْفَتَيَّاتِ وَالْفَتَيَّانِ مِنَ الْمُوْبِقَاتِ الَّتِي تَسْدِي بَابَ الْجَنَّةِ .

وَيَرْفَضُ مَوْظُوفُ الْوَزَارَاتِ الصَّعُودَ فِي مَصْدِعِ كَهْرَبَائِيِّ وَاحِدٍ مَعَ نِسَاءِ دَاخِلِ مَبَانِيِّ حَكُومَيَّةٍ ، فَهَذَا أَيْضًا خَطِيَّةً فِي نَظَرِ الْأَصْوَلِيِّينَ . وَفِي غَضُونِ شَهْرِ رَمَضَانَ لَا يَوْجَدُ فِي الْوَزَارَاتِ وَالْدَوَائِرِ طَعَامٌ وَشَايٌ وَقَهْوَةٌ ، وَقَدْ وَافَقَتِ الْحُكُومَةُ عَلَى مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ لِبَنَاءِ جَامِعٍ فِي الْحَدِيثَةِ أَمَامَ الْبَرْلَمَانِ لِيَقُومَ مِنْ يَرِيدِ مِنَ النَّوَابِ بِتَأْدِيَةِ الصَّلَاةِ فِيهِ ، وَكَانَ النَّوَابُ الْمُتَدِينُونَ فِي زَمِنِ اَتَّا تُورُكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى غَرْفَ مَنْزُوَيَّةِ الْصَّلَاةِ . إِنَّ عَدْدَ الْجَوَامِعِ فِي الْبَلَادِ ازْدَادَ بِأَكْثَرِ مِنْ مِنْ تَلَاثَةَ أَضْعَافٍ فِي الْعَقُودِ الْأُخِيرَةِ وَارْتَفَعَ إِلَى ٧٢ أَلْفَ جَامِعٍ وَهُنَّاكَ أَكْثَرُ مِنْ ٦٠٠ قَرْيَةٍ بَدْوِيَّةٍ بِمَدَارِسٍ لَكِنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا جَامِعٌ خَاصٌّ بِهَا . وَقَدْ أَصْبَحَ تَعْلِمُ مَهْنَةً إِمَامًا أَوْ خَطِيبًا فِي الْجَامِعِ مَرْغُوبًا فِيهِ بِشَكْلٍ لَا مَثِيلَ لَهُ . وَكَانَ ٤٢٠٠ طَالِبٍ فَقْطَ يَتَعَلَّمُونَ هَذِهِ الْمَهْنَةَ فِي ١٩ مَدْرَسَةٍ عَامَ ١٩٦١ ، فَفَقَرَ عَدْهُمْ إِلَى ٢٢٩ أَلْفَ طَالِبٍ فِي ٧١٦ مَدْرَسَةٍ عَامَ ١٩٨٥ . وَلَمْ يَعُدْ الْجَيْشُ نَفْسَهُ فِي مَأْمَنِ مِنَ الْعَدُوِّ الْإِسْلَامِيِّ ، فَفِي جَامِعَةِ أَضْنَةِ كَشْفِ الرَّئِيسِ إِفْرِينَ النَّقَابُ مُؤَخِّرًا أَمَامَ الْطَّلَبَةِ عَنْ تَسْرِيْحِ ٩٦ طَالِبًا مِنْ مَعَهْدِ الضَّبَاطِ بِسَبِيلِ دِينِيَّةِ مَتَطَرِّفَةٍ كَانُوا بَيْنَ ٨١٣ طَالِبًا مِنْ أَفْقَرِ فَئَاتِ الشَّعْبِ فِي الْمَعَهْدِ ، وَفَسَرَ إِفْرِينَ هَذَا التَّشْرِيبُ الْدِينِيِّ بِأَبْعَادِهِ الْمُتَفَشِّيَّةِ عَلَى نَطَاقِ وَاسِعٍ بَيْنِ الْعَوَالِيِّ الْفَقِيرَةِ الَّتِي تَرْسِلُ الْأَبْنَاءِ الْأَذْكَيَّاتِ إِلَى مَدَارِسِ وَمَعَاہِدِ دِينِيَّةٍ حِيثُ يَتَلَقَّوْنَ الْعِلْمَ وَالْمَأْوَى مَجَانًا ، وَحَذَرَ إِفْرِينَ بِقَوْلِهِ: إِذَا لَمْ تَطْفَأْ النَّارَ فِي وَقْتٍ مُبْكِرٍ فَإِنَّ الْمُمْكِنَ أَنْ يَلْتَهِمُ الْحَرِيقُ الدَّارُ كُلَّهَا .

وَهَذَا هُوَ رَأْيُ عَسْكَرِيِّينَ قِيَادِيِّينَ مِنْذَ أَمْدَ قَصِيرٍ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ الْجَنَّرَالَاتُ الْأَعْضَاءُ فِي مَجْلِسِ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ لِتُرْكِيَا مُؤَخِّرًا فِي نَادِيِّ الْجَيْشِ بِأَنْقَرَةَ ، وَكَانُوا يَرْتَدُونَ مَلَابِسَ مَدْنِيَّةَ ، وَحَرَرُوا بِرَئَاسَةِ رَئِيسِ هَيَّةِ الْأَرْكَانِ الْعَالَمِ "نَجَدَاتُ أُورُكَ" رَسَالَةً تَحْذِيرَ مَوْجَهَةً إِلَى قِيَادَةِ الدُّولَةِ جَاءَ فِيهَا: إِنَّ الْقَوَافِلَ الْمُسَلَّحةَ قَلْقَةً لِلْغَايَةِ مِنْ زَحْفِ الْأَصْوَلِيِّينَ الْمُسْلِمِينَ وَتَتَوَقَّعُ أَنْ يَتَمَّ بِسَرْعَةٍ وَقْفُ الرَّجُعِيَّةِ الْدِينِيَّةِ الْمُتَنَامِيَّةِ . وَوَجَهَ أُورُكَ تَحْذِيرًا لَا تَبَاسَ فِيهِ إِلَى الشَّعْبِ بِقَوْلِهِ: (تَوْجِدُ فِي هَذِهِ الْبَلَادِ قَوَانِينَ وَحُكُومَةً وَدُسْتُورًا وَجِيشًا يَعْرَفُ مَا يَنْبَغِي الْقِيَامُ بِهِ) .

إِنَّ مَا يَفْهَمُهُ الْجَنَّرَالَاتُ الْأَتْرَاكُ كَوَاجِبٌ عَلَيْهِمْ قَدْ أَظْهَرُوهُ عَامَ ١٩٦٠ وَ ١٩٧١ وَ ١٩٨٠ ؛ فَقَدْ تَسْلَمُوا السُّلْطَةَ الْمَدْنِيَّةَ بِأَيْدِيهِمْ وَعَطَلُوا الْدُسْتُورَ ، وَفَعَلًا ، تَتَهَمِّسُ الْأَوْسَاطُ السِّيَاسِيَّةُ فِي تُرْكِيَا حَوْلَ تَكْهَنَاتِ

بانقلاب عسكري قریب ، ويتنافل الناس في كل مكان بهم (إن الجزمات العسكرية تمسح الانثانية في الثكنات لكي يتم الزحف على الحكم دون عوائق).

وإذا كان القادة العسكريون يهددون بانقلاب جديد يقتل البرلمان ، ويحكمون البلد من خلال قانون الطوارئ.. فهذه الأساليب لا تخيف الدعاة الصادقين ولا ترهبهم.. ومنذ ستين عاماً والانقلابات العسكرية مستمرة ، والهيمنة لقانون الطوارئ ، ومع ذلك فقد عاد الناس إلى كنف ربهم ، وأعرضوا أشد الإعراض عن أتاتورك ودينه ودستوره ، والجيش الذي يستخدمه الطاغة هو من هذا الشعب المسلم ، وسوف يختار أخيراً الإسلام وينهض من سبات نومه ، ولن ينسليخ الابن عن أبيه وأمه وإخوانه وأساتذته.

أما قول الرئيس التركي: [إذا لم تطفأ النار في وقت مبكر ، فإن من الممكن أن يلتهم الحريق الدار كلها] وقوله أيضاً: [توجد أصولية في تركيا هي خطرة على جمهوريتنا مثل الشيوعية والفاشية]. فالخطر كل الخطر في بعد تركيا عن الإسلام واستبداله بدين جديد اسمه العلمانية ، وفي ظل هذا الدين الجديد أصبحت تركيا محمية من محبيات الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت أكبر دولة في العالم ، وكان الغرب والشرق يرتد خوفاً وهلعاً من المسلمين الأتراك الذين كانوا يفتحون البلدان ، وينشرون الإسلام ، ويحطمون التغيير.

والذي ننصح به إخواننا في تركيا أن يستفيدوا من أخطاء إخوانهم في بقية البلدان الإسلامية ، وأن لا يستدرجو إلى معارك جانبية تستنزف طاقاتهم.. وليخذروا أشد الحذر من الباطنية ودعاتها وأجهزة إعلامها ، ويبدو أن مجلة "دير شبيجل" قد اعتمدت على مصادر باطنية أو على مصادر متعاونة مع الباطنيين ، وليسوا تارينا القديم والحديث أو على الأقل تاريخ تركيا منذ عدة قرون ، وسوف يعلمون أن هؤلاء الباطنيين كانوا يتحالفون مع كل عدو ضد تركيا المسلمة ، والتاريخ يعيد نفسه ، والباطنيون لا يقبلون أن تعود تركيا كما كانت دولة مسلمة قوية تدافع عن الإسلام والمسلمين.. وكل الذي يبحثون عنه أن يبثوا سمومهم في هذا البلد الطيب ، ويجندوا ضعاف النفوس ليقيموا حلفاً بينهم وبين غلاة الباطنية في تركيا ، ويكون هذا الحلف المشبوه ستاراً لنشر أفكارهم وتفرق الصف الإسلامي..

ونعتقد أن المحاولات التي بذلوها ، والفتن التي روجوها خلال عدة سنين كافية للاقتناع لمواجهة هذا الأخبطوط الباطني ، فليراجع إخواننا الدعاة في تركيا حساباتهم ، وعندئذ سيعلمون صدق وأهمية ما ننصحهم به.

تعريف الملا في الفكر الإسلامي (من صفات الملا)

عثمان جمعة ضميرية

لو عدنا إلى القرآن الكريم، وتتبعنا الآيات الكريمة، التي يتحدث الله تعالى فيها عن أولئك الملا وموافقتهم من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لوضعنا أيدينا على مفتاح شخصية أولئك الملا وتعرفنا على صفاتهم، وسنشير فيما يلي إلى أهم هذه الصفات ، ولعل الحديث - فيما يأتي - عن وسائل الملا في محاربتهم لدعوة الرسل والصد عنها ، يعطينا ملامح أخرى لشخصية الملا وصفاتهم أيضاً.

أولاً - الملا يستكرون في الأرض بغير الحق:

وذلك شنثنة قديمة نعرفها من الملا، الذين نصبو أنفسهم دعاة للضلال والصد عن الدعوة ولمعاداة الأنبياء والكفر بهم ، فقد أخذتهم ، العزة بالإثم عندما بعث الله تعالى لهم رسلاً من البشر ، يدعونهم إلى الله تعالى وتوحيده وعبادته ، فاستنكفوا عن ذلك ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويذبذبون ، ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً ، فاستحقوا - بذلك - الخلود في النار: ((إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ جَنَّةَ هَنَّى يَلْجَ الجَمْلُ فِي سَمَّ الْخَيَاطِ وَكَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)) [الأعراف: ٤٠].

وقد وصف الله تعالى أولئك الملا بالاستكبار، حتى أصبح ذلك وصفاً لازماً لهم، وهذا هي الآيات القرآنية الكريمة تحدّثنا عن موقف أولئك الملا من أنبيائهم، عليهم الصلاة والسلام، واستكبارهم عن اتباع الهدى:

أ - فالأشراف والساسة المستكبرون من قوم نوح - عليه السلام - ، يكذبون نوحًا؟ لأن اتباعه من البشر ، بل هم من فقراء البشر وأراذل القوم - بزعهم - من أصحاب المهن البسيطة ، كالباعة والحاكة ، وغيرهم ، ولذلك فالساسة المستكبرون يأنفون أن يكونوا معهم في دعوة واحدة ، وفي صف واحد يجمعهم: ((ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا يَشْرَا مُتْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُلَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُكُمْ كَاذِبِينَ)) [هود: ٢٦ - ٢٧] ، ((قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعْكَ)) [الشعراء: ١١١].

وكأنهم طلبوا من نوح - عليه السلام - أن يطرد المؤمنين عنه ؛ احتشاماً ونفاسة منهم وأنفة أن يجلسوا معهم تماماً كما طلب سفهاء قريش من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء ، ويجلس معهم مجلساً خاصاً - ولكن نوحًا - عليه السلام - أجابهم بما حكاه الله تعالى عنه، فقال:

((وَمَا أَنَا بِطَارِدٌ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكُنِي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَدَنِي أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)) [هود: ٢٩ - ٣٠]. ((وَمَا أَنَا بِطَارِدٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) [الشعراء: ١٤ - ١٥].

ب - وبعث الله تعالى هوداً - عليه السلام - إلى عاد ، وكانوا ذوي شدة وبأس وقوة ، وكأنهم قد وصلوا إلى قمة الإبداع المادي والحضارة الصناعية والرفاه - وقتذاك - إلى حد الترف والإسراف ، فاتخذوا من البناء على جواد الطرق المشهورة ما يبهر العقول ، ومن البروج المشيدة والبنيان المخلد وماخذ الماء ما يثير الإعجاب ، وكل ذلك لا لحاجة لهم ، بل هو يفيض عن حاجتهم ، فيتخذونه عبثاً وتكتاثراً ولهمواً ومفاحرة:

((أَتَبْنُوْنَ بِكُلِّ رِيعِ آيَةٍ تَعْبُثُونَ (١٢٨) وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)) [الشعراء: ١٢٧ - ١٢٨]. فكان ذلك التراء العريض والتقدم الصناعي ، الذي أتخمو فيه ، سبباً من أسباب استكبارهم وغرورهم واستعلائهم.. فوقفوا ضد هود - عليه السلام - ، وانطلق الملا الكافر منهم - إذ كان فيهم من قد آمن بهود - عليه السلام - يكذب ويصد عن الدعوة ، وينشر الأراجيف والشائعات الكاذبة ، بحجة أن هوداً - عليه السلام - من البشر ، وكيف يؤمنون بشر مثلهم؟: ((وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)) ، [الأعراف: ٦٥ - ٦٦].

((وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَتَرْفَانَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرُبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطْعَنْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُوْنَ))، [المؤمنون: ٣٤-٣٢].

((فَإِمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَّا قُوَّةً)، [فصلت: ١٥].

ج - وهما هم أولاء الملا من قوم صالح - عليه السلام - يدفعهم الكبر إلى الاستعلاء والتکذیب والکفر: ((قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ أَمْنَى مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُوْنَ))، [الأعراف: ٧٦].

فهم كفروا بما آمن به هؤلاء المؤمنون المستضعفون ، استكباراً أن يكونوا مثلهم مؤمنين ، وكأنها نكالية بهم أو مشاكسة ومعاكسة لأولئك المؤمنين المستضعفين ! وكيف يرضون لأنفسهم أن يطيعوا رجالاً من البشر ؛ ويصيروا مزعوسين له؟ وهم أصحاب الرعامة والسيادة والمال والثراء: ((كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِالنَّذْرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبْشِرُوا مَنَا وَاحِدًا تَنْتَبِعْ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُرْعٍ (٢٤) أُوْلَئِي الْذَّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ)) ، [القمر: ٢٣ - ٢٥].

وكما كانت عاد في قمة التقدم الصناعي والرفاه والوفرة حتى أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم ، كذلك كانت ثمود ، فقد جاءت بعدها تخلفها في هذا المتعاع الذي أنعم الله تعالى به عليهم وكان سبباً لاستكبارهم وكفرهم:

((وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنَحَّذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجَبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا أَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) [الأعراف: ٦٧].

((كَذَّبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِيْنَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ لَا تَنْقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

(١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيْعُونَ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ (١٤٥)

أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا أَمِينِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونَ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨)

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجَبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيْعُونَ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوْا أَمْرَ الْمُسْرِفِيْنَ

(١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِيْنَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَنْتَ بِأَيِّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ)) ، [الشعراء: ١٤١-١٥٤].

د - وكذلك وصف الله تعالى الملا من قوم شعيب - عليه السلام - بالكبر ، فقال:

((قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْتَنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتَنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُذْنَا فِي مِلَّتَكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعْ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَّبَعْتُمْ شَعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُوْنَ)) [الأعراف: ٨٨-٩٠].

ه - وهي الصفة بعينها ، يصف الله تعالى بها الملا من قوم فرعون:

((ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِأَيَّاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِيْنَ)) ، [يوسوس: ٧٥].

((ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِأَيَّاتِنَا وَسُلْطَانَ مُبِينَ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِيَّنَ (٤٦) فَقَالُوا أَنْتُمُ لَبِسَرِيْنِ مِثْلُنَا وَقَوْمُهُمْ مَمَّا لَنَا عَابِدُوْنَ)) ، [المؤمنون: ٤٦-٤٧].

((فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْفَقْلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ أَيَّاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِيْنَ)) [الأعراف: ١٣٣].

((ولَقَدْ جَاءُهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ))، [العنكبوت: ٣٩].
و - والملا من العرب ، زعماء قريش وصناديقها ، كانوا يستكبرون عن آيات الله ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك فقال:

((الَّيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ))، [الأنعام: ٩٣].

وفي المدينة كان المنافقون يأنفون أن يؤمنوا برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأن المؤمنين حوله هم من السفهاء بزعمهم:

((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنَ لَا يَعْلَمُونَ)) ، [البقرة: ١٣].

وقد كانوا إذا قيل لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم ، وكان يمثل ذلك الطاغية رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول (١) ، قال الله تعالى عنهم:

((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّرُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأْيَتُهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)) ، [المنافقين: ٥].

* ونجد في السيرة النبوية نماذج لاستكبار الملا من قريش ، فيما كانوا يتظلونه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم مجلساً خاصاً ، يجلس فيه معهم وحدهم ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه ، كلال وعمار ، وصهيب وخباب ، وابن مسعود ، رضي الله عنهم ، وليرد أولئك بمجلس على حده ، فهم يأنفون أن يجلسوا مع هؤلاء الضعفاء ، ويتكبرون عليهم ، فحذر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يميل إلى ذلك ونهاه عنه وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء المؤمنين الأتقياء (٢).

((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَعْفَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا)) ، [الكهف: ٢٨].
وعن سعيد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر ، فقال المشركون للنبي: اطرد هؤلاء ، لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان لست أسميهما. فوقع في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسي. فأنزل الله عز وجل: ((وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)) [الأنعام: ٥٢] (٣).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: مر الملا من قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنه خباب وصهيب وبلال وعمار. فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ((وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشِرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)) إلى قوله: ((أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) [الأنعام: ٥١ - ٥٣] (٤).

وأخرج الإمام ابن جرير الطبرى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: مر الملا من قريش بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وعنه صهيب وبلال وعمار وخباب ، ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؛ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؛ أحنن نكون تبعاً لهؤلاء ؛ اطردتهم عنك! فعلك - إن طردتهم - أن تتبعك! فنزلت هذه الآية: ((وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)) إلى قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)) إلى آخر الآية (٥).

وأخرج أيضاً عن خباب - رضي الله عنه- في قوله تعالى: ! ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى قوله: معم فتكون من الظالمين ، ، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - قاعداً مع بلال وصهيب وخباب ، في أنس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوه حوله حقوهم ، فأتوه فقالوا: إننا نحب أن يجعل لنا منك مجلساً تعرف العرب به فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد. فإذا نحن جئناك فاقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت! قال. نعم! قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة ، ودعا علينا ليكتب. قال: ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية: ((ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطرد هم فتكون من الظالمين)) ، ثم قال: ((وكذلك فتنا بعضهم ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين)) ، ثم قال: ((وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة)) ، فالقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحيفة من يده ، ثم دعاها ، فأتبيناها وهو يقول: ((سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة))! فكنا نقدر معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله تعالى: ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تغدو علينا عنهم تريده زينة الحياة الدنيا)) [الكهف: ٢٨]. قال: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقدر معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها ، قمنا وتركنا حتى يقوم (٦).

وعن عكرمة ، رحمة الله ، في قوله تعالى: ((وأنذر به الذين يخالفون أن يُحشرُوا إلى ربهم)) الآية ، قال: جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف منبني عبد مناف من الكفار ، إلى أبي طالب قالوا: يا أبو طالب ، لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعفاونا(٧) ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتبعنا إياه ، وتصديقاً به! قال: فأتى أبو طالب النبي - صلى الله عليه وسلم - فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية: ((وأنذر به الذين يخالفون أن يُحشرُوا إلى ربهم ...)) إلى قوله ((أليس الله بأعلم بالشاكرين)) ، قال: وكانوا: بلال ، وعمر بن ياسر ، وسلم مولى أبي حذيفة ، وصبيح مولى أسيد. ومن الحلفاء: ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القاري ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشماليين ، ومرثد بن أبي مرثد ، وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي واللحفاء: ((وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا)) الآية. فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله تعالى ذكره: ((وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم)) الآية (٨).

.. تعليل وتحذير

وفي تعليل موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - واجتهاده في دعوة أولئك الملا و ما أعقب ذلك من توجيهات ربانية يقول الباحث محمد عزة دروزة رحمة الله:-

ولقد أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - أن موقف الزعماء هو المؤثر في الجمهور ، وأن نطاق دعوته سوف يبقى ضيقاً ، وأنها سوف تتغير ، وأن الأذى سوف يشتد على المؤمنين مadam الزعماء في هذا الموقف. وكان بعضهم معتدلاً ، أو أقل اندفاعاً في المناوأة والكيد والصدّ من بعض ، فأدّاه اجتهاده إلى بذل الجهد في تألهم وإقامة الصّلات معهم ، بل ومسايرتهم شيئاً ما ، ولو كان في ذلك بعض الغضّ أو الإهمال لأصحابه ، على أمل كسبهم للدعوة وكسر الطوق المضروب حولها.

وكان هذا الاجتهاد خلاف الأولى في علم الله عزّ وجل ، فاقتضت حكمة الله تنبئه إلى ذلك ، وإلى أن مهمته هي: الإنذار والتبيير والدعوة ، والاهتمام بالذين آمنوا به وانضموا إليه ، وعدم المبالغة بالزعماء الذين امتنعوا عن الاستجابة أو وقفوا موقف الصدّ والأذى ؛ بسبب استكبارهم ، وخبث نياتهم ، وسوء أخلاقهم ، واعتباراتهم الشخصية والأسرية. وأن كل ما عليه هو أن يتلو القرآن ويدعوه إلى الله ومكارم الأخلاق. فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها ، وأنه ليس هو وكيلًا عليهم ولا مسؤولاً ، ولا جباراً ولا مسيطرًا ، وإنما هو منذر ، على ما جاء في آيات عديدة في سور عديدة ، منها هذه الآيات كمثال:

١ - ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ)) [الأنعام: ٤٠].

٢ - ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)) (١٠٨) واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) [يونس: ١٠٧ - ١٠٩].

٣ - ((إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتُلُّ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيِّرِيْكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرُفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)) [النمل: ٩١ - ٩٣].

٤ - ((نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ)) [ق: ٤٥].

٥ - ((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ)) (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَدَابُ الْأَكْبَرُ (٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّاهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ)) [الغاشية: ٢١ - ٢٦] [٩].

هؤلاء أتباع الأنبياء... سنة ثابتة:

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - (١٠):

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان غالباً من اتبعته في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح: ((ومَا نرَاكَ اتَّبَعْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَذْلَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)) الآية (هود: ٢٧) ، وكما سأله هرقل ملك الروم أبا سفيان ، حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعافوهم ؟ فقال: بل ضعافوهم . فقال: هم أتباع الرسول (١١).

والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعافهم ، ويعدّون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ، لو كان ما صاروا إليه خيراً ، ويدعونا ، كقولهم: ((لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)) [الأحقاف: ١١] ، وقوله: ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)) [مريم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك : ((وَكُمْ أَهْلَكْنَا فَلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءَيَا)) [مريم: ٧٤]. وقال في جوابهم ، حين قالوا : ((أَهُؤُلَاءِ مَنْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) [الأنعام: ٥٣] أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم وبهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، وبهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ((جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُّلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)) [العنكبوت: ٦٩].

وفي الحديث الصحيح : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُنْظِرُ إِلَيْ صُورَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، وَلَكُمْ يُنْظَرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (١٢).

فتاريخ الرسالات السماوية وسنة الله في الدعوات ، يدلان على أن الذين يبادرون قبل غيرهم ، ويسارعون إلى تصديق الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، في غالبيتهم من أولئك القراء والعبيد والمستضعفين ، وهؤلاء هم الفئات المهمضومة حقوقهم ، أو الذين حرموا من الامتيازات الاجتماعية أو السياسية ، التي احتكرها لأنفسهم الملايين المستكبارون الطاغون ، الذين أوقعوا عليهم الظلم والاضطهاد بفعل النظام السائد الذي يهدر آدمية القراء ويجعل الملايين الكثرا سادة بالفطرة ، لهم على العبيد حق السمع والطاعة والخضوع.

ويقول صاحب المنار : مضت سنة الله تعالى أن يسبق القراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم وإلى كل دعوة إصلاح ، لأنه لا يثق عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم ، وأن يكفر بهم أكابر القوم المستكبارون ، والأغنياء المترفون ، لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضار ، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال (١٣).

ومن الواقع التاريخي :

وإذا كانت هذه قاعدة عامة في الدعوات السماوية ، كما حكاه الله تعالى في القرآن الكريم ، فإننا نجد لها أمثلة أخرى في تاريخ البشر وواقعهم :

فقد كان في مقدمة الذين سارعوا في الدولة الرومانية إلى اعتناق المسيحية ، هم الأرقاء ، لأنها وعدتهم بملائكة السماء ، وأعلنت أنه ليس مقصوراً على السادة ، بل إنها أخبرتهم أن دخول الأغنياء الجنة هو أصعب من أن يلتحم الجمل في سم الخياط ، والمفروض أنه الغني الباغي الظالم المستكبر.. وفي التاريخ الجاهلي الحديث ، كان من أكبر المؤيدين للثورة الفرنسية: الفلاحون ؛ كي تخلصهم من القيود الاقتصادية والاجتماعية التي فرضها عليهم الملايين الإقطاعيون ، وأرباب الحرف والصنائع ؛ لتحررهم من سيطرة نقابات الطوائف ، والعلامة كي يكون لهم نصيب من الحكم الذي كان مقصوراً على الملوك والنبلاء والفنانات العليا ورجال الكنيسة (١٤) ، ولعل هذا يفسر شعار تلك الثورة المعروفة ، وهو : "الحرية والإباء والمساواة" الذي أطلقوه ليخدعوا به الناس وليكسبوا الجماهير إلى صفدهم.

.. جاهلية قديمة جديدة..

ورغم الدعوات التي يطلقها كثير من الناس في الشرق والغرب ، يزعمون فيها أنهم دعاة تحرر الإنسان وأنهم جاؤوا لينقذوا الضعفاء والمهضومة حقوقهم ، وأنهم أنصار حقوق الإنسان ، وأنهم سند لحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ومن أجل ذلك أنشئت المنظمات الدولية وما تفرع عنها من مجالس ومنظمات.. رغم هذا فإنهم هم الذين يكرسون الظلم والعدوان ويزدرون الضعفاء حتى ولو كانوا يجلسون بجانبهم في مقعد من مقاعد منظماتهم التي اصطنعواها لتكون أداة سيطرة على الآخرين.

يقول صاحب : "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله":

ومازال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذور راسخة في عصرنا الذي يسمى بعصر التقدم والمدنية:

- بعض المنسبين إلى أهل العلم يتطاولون على الذين لا علم عندهم !

- والأغنياء المترفون - الرأسماليون والإقطاعيون - يحتقرن العمال الكادحين والقراء المدقعين ،

ولو كانوا أصحاب موهاب فذة !!.

- وأرباب الوظائف الكبيرة يزدرون عامة الناس ، ويتخذون من أنفسهم أرباباً من دون الله!! .
وهذه كلها مقاييس جاهلية ، مهما نعى دعاتها بالمساواة والعدل.. والله سبحانه وتعالى مقياس ثابت لا يتزعزع : ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ)) [الحجرات : ١٣].
إن المتقين أعز خلق الله ، وأرفعهم شأنًا ، ولو كانوا شعثاً غيراً لا يملكون مالاً أو جاهًا.. فهم مؤمنون أتقياء وكفاهم ذلك نسباً وشرفاً...

درس الدعاة..

وإذا كان الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على الناس ، عقبة أئم كل دعوة وإصلاح ، وجسراً إلى النار ، وسبباً للهلاك والبوار ، فينبغي على المؤمنين عامة ، والدعاة خاصة ، أن يكونوا على حذر من الكبر والغرور ، وأن يرتقوا إلى أفق مشرق وضيء ، فيكونوا من الموطئين أكناها الذين يألفون ويؤلفون ، وأن يطامنوا من كبرائهم ، وأن يخضوا جناحهم لإخوانهم المؤمنين ، فيدخلون في زمرة عباد الرحمن الذين يمشون في الأرض هوناً ، وعندئذ يمدون أبصارهم للدار الآخرة التي جعلها الله تعالى للمؤمنين المتواضعين: ((تَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقِيْنَ)) [القصص: ٨٣].

وما أعظم ما أديبنا الله تعالى به ، عندما اقتلع من نفوسنا كل بذرة تنبت الكبر في نفس أصحابها! وما أعظم أدب الإسلام عندما جعل في نفس كل إنسان وازعاً ونوراً يستضيء به ، وحكم عدلاً لا يخطئ الصواب يقضي بأن الكبر تزوير للحقيقة وتعالى على الناس بدون حق.. إذ لا شيء ، مما يتني به الإنسان فخرًا على الآخرين ، ويتكبر عليهم بسببه ، يسوغ له ذلك ويبيره.

* أرأيت العلم الذي تفاخر به وتتكبر؟ إنه من عند الله سبحانه ، ومهما أوتيت منه فلن تبلغه كله: ((وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)) [البقرة : ٣١].

((وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)) [يوسف : ٧٦].

((وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)) [الإسراء : ٨٥].

* أرأيت إلى الملك والسيادة والزعامة؟ إنها بقدر من الله تعالى ، وهو ينزعها منك متى شاء:

((قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعَزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِبَيْكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [آل عمران : ٢٦].

* أرأيت إلى الرزق والمال والمداعي كله؟ إنك لم تخلق منه شيئاً ، فهو كله من عند الله ، وليس لك فيه إلا الكسب:

((أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرِثُونَ (٦٣) أَنَّتُمْ تَرْزُّعُونَ أَمْ نَحْنُ الزَّارُونَ (٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلَّمْنَا تَفْكُهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي نَشَرَبُونَ (٦٨) أَنَّتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزَلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)) [الواقعة: ٦٣ - ٧٠].

* وحتى الطاقة التي تستخدماها وتسخر لها لتيسير سبل الحياة لديك .. إنها هبة من الله تعالى ومنحة للبشر:

((أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنَّتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُفْوِيْنَ)) [الواقعة : ٧١ - ٧٣].

* وماذا بقي لديك؟ الحسب والنسب؟ فهل لك في ذلك إرادة و اختيار؟ هل كنت بمحض إرادتك منبني فلان أو من بنى فلان آخر...؟ وما الذي يميزك عن غيرك ، والكل يمتنون بالنسب إلى أصل واحد.. إلى آدم - عليه السلام :-

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّقَاءِكُمْ)) [الحجرات : ۱۳] ، «وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ لَآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ لَا» (۱۵).

فماذا بقي بعد هذا كله؟ ماذا بقي لك تكبر به على الآخرين إلا العجز والضعف ومعرفة الأصل الذي كنت والنهاية التي إليها تصير؟.

فلتعد إلى نفسك ، ولتضعها في مكانها ، ولا ترفعها إلى ما لا تستحق ، ول يكن لك برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة.

الهوامش :

- ١ - انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢ - ٣٧٢ ، ٣٧٧ - ٣٧٣ ، دار الفكر. بيروت.
- ٢ - انظر: تفسير ابن كثير ٢/٨١.
- ٣ - أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة برقم (٤٦) ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤٢٨) ، وقال الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبراني: ٣٧٩/١١: خرجه السيوطي في الدر المنثور ، وزاد نسبته لأحمد وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردوه وأبي نعيم والحاكم والفریابی وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر.
- ٤ - مسند الإمام أحمد: ١/٤٢٠.
- ٥ - أخرجه الطبراني في التفسير: ١١/٥٧٤ - ٥٧٥ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٢٠: رواه أحمد والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح، غير كردوس ، وهو ثقة. ونسبة السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردوه وأبي نعيم في الحلية. انظر: تفسير الطبراني بتحقيق وتعليق محمود شاكر ، في الموضع نفسه.
- ٦ - الطبراني ١١/٣٧٦ - ٣٧٧ ، وابن ماجه برقم (٤٢٧) في الزهد ، قال المحقق: في الزوائد: إسناده صحيح ، ورجاله ثقات. وقد روى مسلم والنسائي والمصنف بعضاً من حديث سعد بن أبي وقاص. وقال ابن كثير في التفسير ٢/١٣٦: (وهذا حديث غريب فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر) ونسبة السيوطي أيضاً لابن أبي شيبة وأبي يعلى وأبي نعيم في الحلية وابن المنذر وأبي الشيخ ، وابن مردوه والبيهقي في الدلائل. انظر: تعليق محمود شاكر على الطبراني (٣٧٧/١١).
- ٧ - العسفاء: جمع (عسيف) ، وهو العبد ، والأجير المستهان به.
- ٨ - أخرجه الطبراني بإسناده عن عكرمة في التفسير : ١١/٣٧٩ - ٣٨٠.
- ٩ - انظر بحثه القيم عن: (معركة النبوة مع الزعامة) ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ، وهو البحث المقدم للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية عام ١٤٠٠ هـ بالدوحة ، ومنتشر في البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر ٦/٧٤ وما بعدها ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ.
- ١٠ - تفسير ابن كثير ٢/١٣٦.
- ١١ - القصبة بكمالها في البخاري ، كتاب بدء الولي رقم (٧) ، فتح الباري ١/٣١ - ٣٣ وفي مواضع أخرى منه ، ومسلم في الجهاد والسير ، برقم (٧٤) / ٣٩٣ - ١٣٩٧ ، والإمام أحمد في المسند: ١/٢٦٢.
- ١٢ - أخرجه الإمام مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٦٤) ، والإمام أحمد في المسند ٢/٢٨٥ و ٥٣٩ ، وابن ماجه في السنن ، كتاب الزهد برقم (٤١٤٣) ، والبغوي في شرح السنة برقم (٤١٥٠) / ١٤٣٤.
- ١٣ - تفسير المنار للسيد رشيد رضا : ٨/٤٥٥.

- ٤ - انظر: التفسير القرآني للتاريخ ، د. راشد البراوي: ص ١٥٨ ،
٥ - أخرجه الترمذى وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه. وإسناده حسن ، مشكاة المصابيح
بتحقيق الشيخ الألبانى: ١٣٧٣/٣ .

من الأخ إبراهيم الهزاع .. جاءت هذه الخاطرة:

إن ما نرى من فرقـة و اختلاف بين المسلمين من أسبابـه انعدام الثقة بينـهم ، تعيشـ معـ الرجلـ السنينـ الطوالـ ، ويعرفـ عنـكـ دقـائقـ أمرـوكـ ، فيـأـتيـهـ نـاعـقـ منـ غـربـانـ الفـسـادـ فيـوـحـيـ لـهـ بـكـلـمـاتـ لاـ أـصـلـ لـهـ وـلـاـ مـنـبـتـ ، فيـعـرـضـ لـهـ الشـكـ ، وـبـدـلاـ مـنـ أـنـ يـأـتـيـكـ وـيـسـأـلـكـ عـنـ الـأـمـرـ تـأـكـيدـاـ أوـ نـفـيـاـ ؟ـ فإـنهـ يـعـرـضـ عـنـكـ ، وـيـصـرـمـ حـبـلـكـ ، وـلـاـ يـكـلـفـ نـفـسـهـ -ـ بـمـاـ لـكـ مـنـ حـقـ عـلـيـهـ -ـ بـالـنـصـحـ وـالـإـرـشـادـ ،ـ بـلـ قـدـ يـكـونـ هوـ مـنـ يـنـقـلـوـنـ هـذـهـ الـفـرـيـةـ وـيـنـشـرـهـ بـيـنـ النـاسـ .ـ

فليكنـ لـنـاـ مـقـيـاسـاـ نـقـيـسـ بـهـ هـذـهـ الـأـمـرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ((لـوـلـاـ إـذـ سـمـعـتـمـوـهـ ظـنـ الـمـؤـمـنـوـنـ وـالـمـؤـمـنـاتـ بـأـنـفـسـهـمـ خـيـرـاـ وـقـلـلـوـاـ هـذـاـ إـفـكـ مـبـيـنـ))ـ [ـالـنـورـ]ـ ١٢ـ .ـ

فـلـنـحـسـنـ الـظـنـ بـالـنـاسـ ،ـ وـلـاـ نـجـعـلـ الـإـشـاعـاتـ وـأـحـادـيـثـ الـإـلـفـكـ تـدـورـ بـيـنـنـاـ ،ـ وـلـكـنـ مـقـبـرـةـ لـكـلـ إـشـاعـةـ ،ـ وـلـاـ نـبـنـيـ أحـكـامـنـاـ إـلـاـ عـلـىـ حـقـائـقـ نـعـلـمـهاـ ؟ـ فـإـنـ مـقـامـ الشـهـادـةـ عـلـىـ النـاسـ مـقـامـ عـظـيمـ.ـ وـلـذـكـرـ قـوـلـهـ -ـ

صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -ـ لـمـعـاذـ: «ـوـهـلـ يـكـبـ النـاسـ عـلـىـ وـجـوهـهـمـ إـلـاـ حـصـائـدـ أـسـنـتـهـمـ»ـ .ـ

وـصـلـىـ اللـهـ عـلـىـ نـبـيـنـاـ مـحـمـدـ .ـ

أدب و تاريخ معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي (٥) النقد التاريخي عند ابن تيمية و ابن خلدون

محمد العبدة

لا شك أن من المهام الرئيسية للمؤرخ بعد الاطلاع على المرويات التاريخية ، تمحيص الخبر وبيان صحته أو زيفه ، وذلك بعد عرضه على منهج واضح ومحدد المعالم يرتب عليه هو لنفسه ، ذلك أن الخبر بطبيعته يتطرق إليه الوهم والغلط أو الكذب أحياناً ، وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن الأسباب التي تقضي الكذب في الأخبار ذكر منها:

- ١ - التشويش للآراء والمذاهب ، لأن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحیص والنظر حتى تتبيّن صدقه من كذبه.
- ٢ - الثقة بالنافقين. وتمحیص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.
- ٣ - الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية.
- ٤ - الجهل بطبعات العمران (١).

والمقصود بالظواهر ظواهر علم الفلك والكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات.. وقد انتقد ابن خلدون المؤرخين الذين ليس عندهم إمام بهذه العلوم ، فيقللون الأخبار التي تتناقض تناقضاً تماماً مع القوانين العلمية كالخبر الذي ذكره المسعودي عن بناء الإسكندرية (٢).

والمقصود بطبعات العمران الظواهر الاجتماعية ، كالعادات ، والتقاليد ، و الغنى ، والفقر ، والعلم ، والجهل ، وكثرة السكان ، أو قلتهم ، وطبيعة الدول... الخ ، ضمن كل هذه العوامل هل من الممكن وقوع الحادثة أم لا؟ وسنرى كيف يطبق ابن خلدون هذا المنهج في نقه لبعض الأخبار ، وكيف يعتبر أن العلم بطبيعة العمران هو أهم سلاح يوجه للخبر التاريخي: وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحیص الأخبار وتمییز صدقها من كذبها ، ولا يرجع إلى تعديل الرواية حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممکن أو ممتنع ، وأما إذا كان مستحیلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجریح) (٣).

وهذا الكلام وإن كان مقبولاً بشكل عام ، ولكنه يحتاج إلى شيء من التحفظ ؛ فهناك روایات صحیحة ينقلها ثفۃ عدول يعلمون ما ينقلون عن أمور خارقة للعادة ، وبالشروط المطلوبة لوقوع الكراهة فحن نصدقها ، ولا نقبل من أحد أن يقول: هذه لا يمكن وقوعها، كحادثة العلاء بن الحضرمي - رضي الله عنه - في فتح إقلیم فارس زمان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وإن كان الأصل هو الأخذ بالأسباب وجريان الأمور على سنن كونية لا تختلف مع أن الخبر التاريخي يختلف من بعض الوجوه عن نقل حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن يبقى أن منهج الجرح والتعديل الذي قام به أهل الحديث هو من أعظم العلوم التي برب فيها المسلمون ، ونقدوا فيها الروایات التي تتعلق بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واتخذوا في ذلك منهاجاً صارماً للغاية ، ذبأ عن السنة أن يدخل فيها ما ليس منها ، وإن تطبيق هذا المنهج على الروایات التاريخية - إن أمكن ذلك - لهو في غاية الأهمية ، ولكن هناك صعوبات تعرّض هذا التطبيق ، منها:

١ - لم تؤلف الكتب في جرح وتعديل رواية التاريخ كما وقع لرواية حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا شك أن الاهتمام بالسنة هو الأولى والمقدم ، والمقصود : معظم الروایات التاريخية ، وإلا فهناك رواة للتاريخ يمكن معرفة حالهم من كتب الجرح والتعديل.

٢ - إن البحث والنفیش عن الرواية انتهى في القرون الأولى بعد أن اطمأن علماء الحديث إلى حفظ سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن التاريخ حركة دائبة ، فكيف العمل في الأحداث التي جاءت من بعد؟.

٣ - تتدخل عوامل كثيرة في الحديث التاريخي غير الروایة ، مما يساعد على التأكيد أو الشك في الخبر ، كالآثار التاريخية والعوامل الجغرافية.. الخ.

لهذه الأسباب ولغيرها لابد من الجمع بين منهج أهل الحديث ، وما ذكره ابن خلدون من عدم مخالفة الخبر لسنن الاجتماع ، أو عدم مخالفته للعقل الصريح ، مع الاستفادة أيضاً من مناهج النقد الحديثة عند دارسي التاريخ ، مما يتافق والأصول العامة للإسلام.

وسنعرض لنمونجين من تحليل الحديث التاريخي ، ونقد الخبر ، وعرضه على منهج قواعد علم الاجتماع.

أولاً: ناقش ابن تيمیه الذين يطعنون في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - ويقولون: إن المسلمين خالفوا الوصیة التي يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أوصى بها لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه-. قال:

(نقدر أن الأخبار المتنازع فيها لم تكن ، فنرجع إلى ما هو معلوم بالتواتر ، أو بالعقل والعادات ، أو ما دلت عليه النصوص المتفق عليها فنقول:

من المتواتر أن أبا بكر لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة ، فلا بذل فيها مالاً ولا شهر عليها سيفاً ، ولا كانت له عشيرة ضخمة ، بل ولا قال : بايعوني ، ومن تخلف عن بيته لم يؤذه ، ولا أكرهه عليها ، كسعد بن عبدة ، فلما جاءه اليقين خرج منها أزهد مما دخل فيها ، لم يستأثر منها بشيء ولا آثر بها قربة ، بل نظر إلى أفضالهم في نفسه (عمر بن الخطاب) فولاه عليهم فأطاعوه ففتح الأنصار ، وقهروا الكفار ، وبسط العدل ، حتى خرج منها شهيداً لم يتلوث لهم بمال ، ولا ولى أحداً من أقاربه ولاية ، هذا أمر يعرف وينصف ، ثم بايعوا عثمان كلهم طوعاً منهم ، فسار وبنى على أمر قد استقر قبله بسکينة وحلم وكرم ولين ، ولكن لم تكن فيه قوة عمر ، ولا سياساته التي بهرت العقول ، فطمع فيه الناس بعض الطمع ، وتوسعوا في الدنيا ، وكثرت عليهم الأموال ، وتولد من رغبة بعض الناس في الدنيا وضعف خوفهم من الله تعالى ، ومن ضعفه هو بالنسبة إلى كمال الذين سبقوه ، ما استحكم به الشر ، وحرك الفتنة ، حتى قتل مظلوماً. فتولى عليٌّ رضي الله عنه . والفتنة قائمة ولم تصنف قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه الكف عن القتل حتى ينظر ما يؤول إليه أمره ، كما أشار عليه ولده الحسن ، ثم افترقت عليه الخوارج ، وقاتلوا - قاتلهم الله - فكان آخر الخلفاء الراشدين الذين لا ينتمون خلافة النبوة.

طريق آخر: وهو أن يقال: دواعي المسلمين بعد موت نبيهم كانت متوجهة إلى اتباع الحق قطعاً ، وليس لهم ما يصرفهم عن الحق ، وهم قادرون على ذلك ، وإذا حصل الداعي إلى الحق وانتفى الصارف مع القدرة وجوب الفعل. فعلم أن المسلمين خير القرون بايعوا أبا بكر تديناً لا لرغبة ولا لرهبة ، فلو فعلوا بموجب الطبع لقدموا علياً أو العباس ، لشرفبني هاشم ، ولما قيل لأبي قحافة : إن ابنك ولد الخليفة ، قال : ورضيت بنو أمية وبنو هاشم وبنو مخزوم ؛ قالوا: نعم ، فعجب ، وقال: «ذلك فضل الله يؤتى به من يشاء».

طريق آخر: توادر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: «خير هذه الأمة قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» فخير الأمم ، بلا نزاع ، القرن الأول ، ومن تأمل حال المسلمين في القرن الثاني بالنسبة إلى الأول ، علم تباين ما بينهما ، فإن كان القرن الأول جد حق الإمام المنصوص عليه ، ومنعوا عادلاً عالماً عناداً ودفعاً للحق ، فهو لاء شر الخلق وهذه الأمة شر الأمم أخرجت للناس.

طريق آخر: عرف بالتواتر الذي لا يخفى أن أبا بكر وعمر وعثمان كان لهم بالنبي اختصاص عظيم وخلطة وصحبة ومصاهرة ، وما عرف عنه أنه كان يذمهم ، فاما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً معه وبعده ، أو لا. فال الأول هو المطلوب ، والثاني إما أنه علم وداهنهم ، أو لم يعلم ، وأيهمما قدر فهو من أعظم القدح في الرسول - عليه السلام-. وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خذلان من الله لنبيه في خواص أمته ، ومن وعد أنه يظهر دينه على الأديان كيف يكون أكابر خواصه مرتدة؟! هذا من أعظم القدح في الرسول والطعن فيه) (٤)

وبنفس هذه الروح من مناقشة الروايات يرد ابن تيمية على من يقول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . كان سيولي بعده سالماً مولى أبي حذيفة لو كان حياً ، ويترك تولية أحد من أهل الشورى يقول:

(كيف يظن بعمر أنه يولى مولى ، بل من الممكن أنه كان يوليه ولاية جزئية ، أو يستشيره فيمن يولى ونحو ذلك من الأمور التي يصلح لها سالم مولى أبي حذيفة ، فإن سالماً كان من خيار الصحابة) (٥).

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

ثانياً - طبق ابن خلدون منهجه في نقد الخبر وهو: هل يثبت هذا الخبر أو لاً إذا عرض على قواعد علم الاجتماع ، أو أنه يتناقض مع طبيعة العصر وطبيعة العلاقات الاجتماعية يومها ؛ وذكر أمثلة على منفاة الأخبار لطبيعة قواعد علم الاجتماع ذكر منها:

أ- قصة العباسة أخت الرشيد قال: (ومن الحكايات المدخلة للمؤرخين ما ينقولونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع عصر بن يحيى بن خالد مولاه ، وأنه لِكَفَه (٦) بمكانتهما أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وأن العباسة تحيلت على التماس الخلوة ، فحملت من عصر ووشى بذلك للرشيد فاستغضب ...

ويتابع ابن خلدون نقده لهذا الخبر:(وهيئات ذلك من منصب العباسة في دينها، وأبويها،
وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربع رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة
من بعده، وال Abbasة بنت محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
ترجمان القرآن، ابنة خليفة، اخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز ، قريبة عهد ببداؤة العربية
وسذاقة(٧) الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر
إلى موالي الأعاجم على همته وعظم آبائه ؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ،
 واستنكاف الرشيد عن الحجر والأفنة..)(٨).

بــكثيراً ما يقع المؤرخون في الوهم والغلط عندما يكون الخبر متعلقاً بالأرقام والإحصائيات ،
كإحصاء الجيوش، أو أموال الخراج، وبعض الناس عندهم ولع بتضخيم الأرقام، فيذكرون
أشياء تصادم العقل والبدويهيات ، وتصادم قانون النمو السكاني ، وقد انتقد ابن خلدون المؤرخين
قبله لوقعهم في هذه الأغلاط، واعتمد في نقهءه، على علم الإحصاء، وتکاثر السكان ضمن البيئة
الجغرافية التي يعيشون فيها. يقول:

(وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوشبني إسرائيل ، وأن موسى -عليه السلام- أحصاهم في التي به بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون).

يعلق ابن خلدون على هذه الرواية: (ويذهب في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش ، ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه ، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفاً كلهم متبع ، وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف ، وعن عائشة والزهري أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً).

وأيضاً ، فالذى بين موسى وإسرائيل (يعقوب عليه السلام) إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون ، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى -عليه السلام- إلى التيه مائتين وعشرين سنة ، ويبعد أن ينشئون النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد» (٩).

لَا شك أنها نظرة متقدمة جداً من ابن خلدون وهي اكتشافه لقانون التكاثر والنمو السكاني. لقد كان الهدف الرئيسي عند ابن خلدون من كتابة المقدمة هو تخلص الروايات التاريخية من الخطأ والكذب ، ووضع القوانين التي تساعد المؤرخ على عدم الوقوع في الأخطاء ، ولذلك تكلم عن العمران البشري والقوانين التي تحكم سكونه وحركته. ولكنه فوجئ بأنه أتى بعلم جديد هو بحد ذاته هدف ثمرين.

ولكن رغم أهمية ما جاء به ابن خلدون لابد من التأكيد على أن منهج أهل الحديث في نقد الخبر هو من أعظم المناهج ، وإذا استطعنا الجمع بين هذا المنهج ومنهج النقد الاجتماعي والعلقى عند ابن

خلدون وغيره من دارسي التاريخ مع بعض التحفظات على هذه المناهج- فسوف نؤدي بعملنا هذا خدمة جليلة للتاريخ الإسلامي.

الهوامش:

- ١ - المقدمة ٣٢٨/١ ، ط ٣ دار النهضة ، نشر د. علي عبد الواحد وافي.
- ٢ - المقدمة ٣٢٩,١/١
- ٣ - المقدمة ٣٣٠,١/١
- ٤ - المنتقى من منهاج الاعتدال ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،
- ٥ - المصدر السابق، ٣٦٨
- ٦ - كلفت به: أحبيبته وأولعت به.
- ٧ - يقصد بها الفطرة السليمة والوضع الطبيعي الذي لم تشبه شائبة ، والساذج: الصافى لم يختلط بغیره، انظر: المقدمة ٣٠١,١/١
- ٨ - المقدمة ٣٠٠,١/١
- ٩ - المقدمة ٢٩٢/١.

أدب وتاريخ
مفهوم الجاهلية في
الشعر الجاهلي
(٥)

محمد الناصر
ملخص الحلقة السابقة :

في الحلقة السابقة تحدث الكاتب عن بعض أيام العرب المشهورة كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار ، وما جرى في هذه الحروب من ثارات وما قيل فيها من شعر ، وفي هذه الحلقة يدخل الفترة الإسلامية ، أثر الإسلام في تلك البيئة

التمهيد:

من خلال دراستنا للحياة السياسية في الشعر الجاهلي لا حظنا أن لهذه الحياة مقومات أساسية نوجزها فيما يأتي:

- ١- **القبيلة:** هي البنية الاجتماعية والسياسية لتلك المجتمعات ، وفيها يجد العربي الحماية والطمأنينة، ولها يتعصب، والرابط الأقوى فيها هو العصبية التي تنسى أصحابها كل تعلق وتوازن ، فلا رأي ولا حرية للفرد أمام عادات القبيلة وتقاليدها ، وإلا تعرض للخلع والطرد. ولقد نفخت العصبية في أفرادها نيراناً لا هبة من اعتزاز بالنسب،فهم أفضل الناس،واباؤهم أشرف آباء ، حتى أن الشاعر كان ينسى نفسه ويتصور أنه وقومه ملوك الدنيا المتصرفون الباطشون بلا رادع، وقد افتخروا بكثرة العدد والعدة، فكثرت المنافرات بينهم، وبالقوة والشجاعة ، بل بالجبروت والغطرسة وهي من أهم خصائص تلك الجاهلية.. ولقد وجدنا خلال دراستنا للشعر الجاهلي شواهد كثيرة في هذا الشأن.

٢- العادات والتقاليد: وكان للتقليد عندهم سطوة الدين والمعتقد ، فلا يستطيع الفرد مهما أotti من مكانة أن يخرج عليها ، لقد تاهوا في ضلالات الجهلة والنفليد ، وعطلوا فكرهم وعقولهم ، ولذلك سفه الإسلام أحلامهم وحاول تحرير عقولهم ، حتى تمكّن من تخليصهم من رواسبها.

٣- التفرق والشتات: لم يعرف العرب وحدة سياسية في تاريخهم الجاهلي ، حتى أن الإمارات التي نشّكت كانت لا تزيد عن كونها قبائل متصارعة مع أمثلها ، ولم تتفّذ إلى فكرة الأمة أو الجنس ، بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما اتخذت صورة اتحاد قبلي له رئيس ليس غيره . لقد كُوِّنَ المناذرة والغساسنة إمارتين اصطدمت بهما فارس والروم لضرب القبائل العربية الأخرى في الجزيرة ، وكثيراً ما وقعت الحروب الطاحنة بين هاتين الإمارتين . ولقد أدّتا دورهما في خدمة سادتهما خيراً أداء من بطيش بالقبائل العربية ، وقتل وتخرّب .. وفي مؤة حارب مع الروم من قبائل العرب مثل : لخم وجذام وبلي وغيرهم ما يزيد عن مائة ألف بالإضافة إلى مثّلهم من الروم (١).

أما إمارة كندة ، ومدن الحجاز ، فما كانت إلا تجمعات قبالية سكنت الحاضرة ولم تخرج على عادات القبائل وصراعاتها.

٤- الحروب والأيام: إن العربي في البايدية شجاع، يفضل الموت تحت ظلال السيوف، على حياة الذل والضييم ، فحياته حرب ضروس لا تهدأ ، وقد ذخرت موضوعات الشعر في تصويرها كما مر معنا في الأعداد السابقة، إذ مدح الشعراء الشجاعة والشجعان، والفروسيّة والفرسان ، والحياة للقوى ، وهذا ما عبر عنه زهير إذ يقول:

ومن لم يزد عن حوضه بسلامه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وكثير الهجاء وشارك في المعارك مصوراً الفرار والهزيمة ، وبكى الشعراء قتلهم ، وندبت النساء
الموتى ، وعرف الشعر العربي عدداً من أصحاب المراثي..
آثار الحرب: وكان من آثارها كثرة الأسرى والسبايا ، وما رافق ذلك من تأريث للعداوة ، ومحاولات مستمرة لتخلص الأسرى والسبايا.

أما عادة الثأر فقد كانت متأصلة في نفس العربي وكثيراً ما سببت حروباً لا تنطفئ ، ولم تمنع القرابة من الثأر بين أفراد القبيلة الواحدة.

وقد تلّجأ القبائل في هذه البيئة الحربية ، التي يشع فيها الفزع والهول ، إلى التحالف مع القبائل الأخرى لترد عن نفسها العداون.

ولقد صورت لنا أيام العرب هذه الحياة الحربية ، وذلك الصراع الدامي ، وإذا تصفحت الجزء الأول من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير مثلًا يهولك هذا الجو الصاخب من الحروب والضغائن. إنها الجاهلية بكل مقوماتها ، انطلقت صاحبة لا تقف عند حد ، مادامت لا تحكم إلى دين ، وإنما تتبع ما وجدت عليه الآباء والأجداد..

لقد كان العربي في وثنيته مستبعداً لعدد من الأرباب والمعابدات ، بالإضافة إلى عبادة الأصنام والكواكب كان الفرد ينصاع إلى استعباد القبيلة والعرف ، والعادة ، ثم إلى الهوى والشهوات..

كلمة في المنهج:

في القسم الأول من هذه الدراسة ، كنت قد اعتمدت على الشعر الجاهلي ؛ لأنّه خير مصدر لتصوير حياة العرب في تلك الفترة ، إذ قد اهتم به علماء اللغة تدويناً ودراسة ، أكثر من اهتمام المؤرخين ، فدراستهم كانت ظنية تعتمد على الحدس والتخمين ، أو دراسة الآثار..

وفي هذا القسم كان اعتمادي على القرآن الكريم؛ لأنَّه صور حياة الجاهلية تصویراً دقيقاً، حيَاً معبراً بالأحداث، والسنَّة النبوية المطهرة - وصراع النخبة المؤمنة مع ذويهم ومعاصريهم - حيث صورت هذا الصراع كتب السيرة والتراجم، ثم شعراء الدعوة الإسلامية في صدر الإسلام. إننا نعيش الآن في غربة ، غربة جديدة للإسلام ، تجعل محاولة العودة صعبة وشاقة ، وفيها عنصر الجدة.. لابد من عودة جادة إلى المنابع الأولى الصافية ، منابع العقيدة ، دراسة السنَّة وكيف ربى الرسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أصحابه قال - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «بَدَا إِلَّا سَلَامٌ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَا» ، فطوبى للغرباء «أخرجَه مسلم.

«لقد دار الزمن دورته وعاد الإسلام كما بدأ ، كما أخبر بذلك الرسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، هذه الغربة تجعل محاولة العودة كأنها جولة جديدة... وسيتوفر لها عنصر الجدة... فيكون حافزاً لها على بلوغ القمة» (٢).

وفي سبيل هذه العودة نتلمس المنهج في طريقة تربية الجماعة الأولى ، جماعة الرسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكيف كانت من الاستعلاء بإيمانها على حياة التمزق والتباين والضياع... إن حياة الإلف والعادة لل المسلم قد تجعله ينقض عرى الدين ، يروى أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عَنْهُ - قال: «ينقضُّ الإسلام عروة عروة ؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

ومن أجل خطوة في طريق التربية الإيمانية ، ومن أجل العبرة ، ومقارنة الواقع بما فيه ، مع ما مضى هذه الأمة الناصع ، بعد جاهليَّة مظلمة ، نقدم هذه الدراسة..

وسوف أركز الحديث حول المباحث التالية:

١ - التربية العقدية: ودورها في تربية الجماعة الأولى.

٢- العصبية القبلية: وكيف عمل الإسلام على تذويبها.

٣- وحدة الأمة: بعد التفرق والشتات.

٤ - اتباع التقاليد وتحكيم الأهواء.

٥- الجهاد في سبيل الله: بعد الحروب الدامية.

أولاً - التربية العقدية:

كيف واجه الإسلام الجاهلية؟ كيف انتشر العرب من أوضارها ؟ كيف رباهم رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى يخلصوا من القيم التي كانوا يقدسونها والعادات التي كانوا يخضعون إليها؟.

للإجابة على هذه الاستفسارات لابد من العودة إلى منهج التربية الذي ربَّى عليه محمد بن عبد الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أصحابه فهو قدوتنا ، وواجب علينا أن نتبع منهجه ((أَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةً حَسَنَةً)).

أ-طريقة الإسلام في التربية: (التوحيد الخالص).

كانت البداية الأولى في التربية هي تصحيح العقيدة في الله ، ومنذ اللحظة الأولى ، منذ أن يعلن المسلم (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللهِ) يصبح انتماء المسلم لدينه ، ويتبَّرَّأً بعدها من كل معبود أو متبع أو مطاع سوى الله (٣).

((فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)) [البقرة: ٢٥٦].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة - رضيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إنَّ اللهَ قد أذهب عنكم عيَّنةَ الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وأدم

من تراب، ليدع عن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»(٤).

بهذا التصوير والتفير ، بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينفر أصحابه من رواسب الجاهلية ومخاشرها وعصابياتها

«لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته ماضيه في الجاهلية ، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام ، أنه بدأ عهداً جديداً ، منفصلًا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية.. كان يقف منها موقف المسترب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام..»(٥).

نعم هكذا كان مفهوم التوحيد يسيطر على مشاعر المسلم فيتحول إلى واقع حي متحرك ، يملأ عليه شغاف قلبه ، بعيداً عن المفاهيم الذهنية المجردة ، والمعرفة العقلية البحتة ، كما يحلو لبعض الناس أن يفهموا التوحيد في عصور التقهر والتبعية.

إن «المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة شيء ، والمعرفة الحية التي تتبع من الوجдан فتنفعل بها النفس كلها ، وتعطي تأثيراً معيناً في السلوك الواقعي شيء آخر ، هي ما يطلبه الإسلام بالذات ويستتبعه في قلوب المسلمين ليصبحوا مسلمين».

«والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي لـلا إله إلا الله.. وصلتها الوثيقة التي لا تنفص بالحكم بما أنزل الله».

«وعندما تستقر هذه الحقيقة في الأذهان ينبغي أن تعمل على تحويل حياتنا كلها ل تستقيم على منهج الله في كل شيء: في سياسة الحكم ، في سياسة المال ، في سياسة المجتمع..»(٦).

إن المسلم إذا تمكنت عقيدة التوحيد وحقيقة لا إله إلا الله من نفسه لابد أن يتبرأ من المشركين وما هم عليه.

«إنه لا يستقيم للإنسان إسلام سلو وحد الله وترك الشرك - إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة (٧) ، كما قال تعالى: ((لا تجُدُّ قوماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَدِّوْنَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولُهُ)) [المجادلة ٢٢].

وفي الصحيحين: «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة وبيتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ؛ إلا لحق الإسلام وحسابهم على الله».

قال أبو بكر - رضي الله عنه: «إن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه»(٨).

«إنبني حنيفة من أشهر أهل الردة وأعظمهم كفراً وهم مع هذا يشهدون. أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤذنون ويصلون ...»(٩).

«ولو كانت كلمة لا إله إلا الله مجرد كلمة لقالتها قريش في الجاهلية ، إلا أنها تعلم أن لها مقتضياتها.. فكفار مكة قد علموا مراد النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فأبوا واستكبروا ولم ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محي مميت (توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية) ولما قال لهم النبي : قولوا: لا إله إلا الله ، قالوا: (أَجَعَّ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) [ص: ٥] (١٠).

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عمل على اجتثاث نخوة الجاهلية وتعلق قلوب العرب بها ، في أحاديثه الشريفة ، وخطبه الكريمة.. فها هو يضع بعد فتح مكة كل مآثر الجاهلية تحت قدميه: «ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج..» (١١). وفي فصل لا إله إلا الله منهج حياة يتحدث المرحوم سيد قطب عن هذا المفهوم إذ يقول: «ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة» (١٢).

((إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ)) [يوسف: ٤٠].

إن الإصرار على صفاء التوحيد ، ونقاء العقيدة ، مع انتزاع روابض الجاهلية ، كان من أهم مقومات التربية المحمدية في دار الأرقام ، ومدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما تزال هي الطريق الوحيدة ، لكل تربية جادة لا تزيد العبث واللهو والتسلو على فتات الشرق والغرب ، باسم الإسلام ، وضغط العصر الحاضر ومدننته المادية..

ب - الحب في الله والبغض في الله:

لقد تشكل المجتمع الوليد في مكة المكرمة ، على أنقاض مجتمع الجاهلية ، واكتملت صورة هذا المجتمع الإسلامي بعد الهجرة إلى المدينة المنورة...

تشكل مجتمع العقيدة ، على الحب بين المؤمنين والأخوة بين المسلمين إن الحب بين المؤمنين هو الذي كان «يحرك حياة المؤمن كلها..» هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق ««والأخوة هنا.. حيث لم تكن هناك -أي في الجاهلية - إنها الأخوة.. إنه الترابط الصادق.. كانت الخطوة الأولى في التربية هي حب الله ورسوله، والخطوة الثانية هي الالتقاء على حب الله ورسوله» «يلتقي الناس على العقيدة في الله.. لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله فلا تكون ذواتهم بارزة.. إنما يكون الجانب البارز هو الحب .. بل إن الإنسان المؤمن يحب أن يؤثر أخيه على نفسه.. وذلك من معجزات العقيدة ومعجزات التربية على العقيدة ((وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةً)) [الحشر: ٩].

«وكان يغيط قريشاً ويثير عجبها محبة أصحاب محمد لمحمد حتى قال أبو سفيان: «ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمدأ» (١٣).

إن هذه المحبة بين المؤمنين من لوازم لا إله إلا الله ، والبراء من المشركين من لوازمها أيضاً (١٤). يقول تعالى: ((لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِيَّاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّمَا مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)) [آل عمران: ٢٨].

وقال - عليه الصلاة والسلام: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله المعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله» (١٥).

وما رواه الإمام إحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله بايعه على أن : «تنصح للمسلم وتبرأ من الكافر» (١٦).

وفي صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «المرء مع من أحب» (١٧).

«إن أصل الموالاة الحب ، وأصل المعاداة البغض ؛ وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة.. كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك» (١٨).

«ويتبين مما سبق أن الولاء في الله هو محبة الله ونصرة دينه ، ومحبة أوليائه ونصرتهم ، والبراء هو البغض لأعداء الله ومجاحدتهم..» (١٩).

إن موالة المشركين خطيرة ، ما كان الجيل الأول يقترب منها ، وإن موالة المؤمنين ومحبتهم من علامات الإيمان ، ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله يقول يوم القيمة: أين المتحابون بجلاي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » (٢٠).

دعوة الأنبياء:

وهذه هي دعوة الرسل جميعاً ، توحيد خالص ، كلمة واحدة يرددوها كل رسول: « لا إله إلا الله اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ».«

وبراءة خالصة من الشرك في جميع أشكاله. وهذا أبو الأنبياء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يتبرأ من عبادة قومه:

((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)) [سورة الممتحنة: ٤].

ولابد أن نتأسى بخاتم الأنبياء والرسل محمد - صلى الله عليه وسلم - ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) [الأحزاب: ٢١]، فرسول الله وإخوانه الأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والسلام - كانوا نماذج الهدى لجميع الناس في كل أمر من أمور حياتهم ومماتهم ، وأوجب الله طاعتهم واتباع أوامرهم ، قال تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)) [النساء: ٦٤] (٢١).

الهوامش :

- ١ - البداية والنهاية لابن كثير: ٤/٢٤٣.
- ٢ - منهج التربية الإسلامية: ٢/٩١ للأستاذ محمد قطب.
- ٣ - انظر كتاب الولاء والبراء ط: أولى. د. محمد سعيد القحطاني ، ص ١٠٤.
- ٤ - سنن أبي داود كتاب الأدب ٥ ، ٣٤٠ ، ٥١١٦ ، وأخرجه الترمذى في المناقب ، وقال : حدث حسن.
- ٥ - معالم في الطريق: سيد قطب ، ص ١٩ - ٢٠.
- ٦ - منهج التربية الإسلامية: محمد قطب ٢/٢٨ ، ٢٨/٢ ، ٨٣.
- ٧ - انظر مجموعة التوحيد ، وستة مواضع من مقدمة مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- ٨ - انظر مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد عبد الوهاب ص ٣٠ ، ٣٢.
- ٩ - المرجع السابق.
- ١٠ - المرجع السابق.
- ١١ - المرجع السابق ، ص ١٤٦.
- ١٢ - معالم في الطريق ، ص ٩٢.
- ١٣ - منهج التربية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٤١ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٣٨.
- ١٤ - انظر الولاء والبراء: د. القحطاني ص ٤٠ ، ٦٠.
- ١٥ - انظر الجامع الصغير ٣٤٣/٢ ح ٢٥٣٦ . وقال الألبانى: حديث حسن.
- ١٦ - المسند للإمام أحمد ج ٤/٣٥٧.
- ١٧ - فتح الباري ، كتاب الأدب ، ٥٥٧/١٠ ، ح ٦١٦٨.
- ١٨ - الرسائل المفيدة للشيخ عبد الطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ نقلًا عن الولاء والبراء للدكتور محمد سعيد القحطاني ، ص ٤٠.
- ١٩ - انظر الولاء والبراء ، ص ٤٣ وهو كتاب جيد في هذا الموضوع ، يحسن الرجوع إليه.

- ٢٠ - صحيح مسلم ، كتاب البر ، ج ٤ ، ح ٢٥٦٦ .
٢١ - انظر : منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، ج ١ .

نصيحة من عالم ل الخليفة

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي (*)

يا أمير المؤمنين، إن الله، وله الحمد، قد قلتك أمرةً عظيماً؛ ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلتك أمة هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكم الله، وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم، وولاك أمرهم، وليس يثبت البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد، فيهدمه على من بناه، وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلتك الله من أمر هذه الأمة والرعاية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

* لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت.

* إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل.

* إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فاقم الحق فيما ولاك الله وقلتك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيمة راع سعدت به رعيته.

* ولا ترغ ؛ فتزيف رعيتك.

* وإياك والأمر بالهوى ، والأخذ بالغضب.

* وإذا نظرت إلى أمرین أحدهما للأخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى ، والدنيا تفني.

* وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخفي الله لومة لائم. واحذر فإن الحذر بالقلب ، وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقيه.

* واعمل لأجل مفضوض وسيط مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود ، فإن ذلك المورد الحق ، والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق له داخرون بين يديه ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته ، وكأن ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم ي عمل ، يوم تزل فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطويل فيه القيام ، ويشتت فيه الحساب. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ((وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَلَّفَ سَنَةً مِّمَّا تَعُدُّونَ)) ، وقال تعالى: ((هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمِيعَنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ)) وقال تعالى: ((إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)) ، وقال تعالى: ((كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَهَارٍ)) ، وقال: ((كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُسُوا إِلَّا عَشِيهًأَوْ ضُحَاهًا)). فيالها من عشرة لا تقال ، ويالها من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهر: يليلان كل جديد ، ويزربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعد ، ويجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب.

* فالله الله ، فإن البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعذبين ، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ، ولا يدينهم بمنازلهم.

وقد حذرك الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عثاً ، ولن ترك سدى. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب.

واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسئلة ؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم - :

«لا تزول قدما عبد يوم القيمة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيه أنفقه ، وعن جسده فيما أبلأه» ، فأعدد - يا أمير المؤمنين - للمسئلة جوابها، فإن ما عملت فأثبّ فهو عليك غداً يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.

وإنى أوصيك - يا أمير المؤمنين - بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استر عاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتورع عليك سهول الهدى ، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتتكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تذكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفرج (١) لها لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله ، وأورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضعاه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع ، وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعده من هنالك بذلك ، ووفاه الله أضعاف ما وفي له.

فاحذر أن تضيع رعيتك ، فيستوفي ربها حقها منك ، ويضيعك - بما أضعت - أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم. وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيغت منه ، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره ، فلست تنسى ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم ، فليس يغفل عنك. ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبحاً وتهليلاً وتحميلاً ، والصلاحة على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ،نبي الرحمة ، وإمام الهدى - صلى الله عليه وسلم -.

وإن الله بمنه ورحمته جعل ولادة الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم. وإضاءة نور ولادة الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالثبت والأمر البيان.

وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعًا ، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت.

وجور الراعي هلاك للرعية، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة. فاستتم ما أتاك الله - يا أمير المؤمنين - من النعم بحسن مجاورتها ، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ((لَئِن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)).

وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصي كفر بالنعم ، وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفرعوا إلى التوبة إلا سلبوها عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم. وإنى أسأل الله - يا أمير المؤمنين - الذي من عليك بمعرفته فيما أو لاك ، أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبابه ، فإنه ولد ذلك والمرغوب إليه فيه. وقد كتبت لك ما أمرت به ، وشرحته لك ، وبينته ، فتفقهه ، وتدبّره ، وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم ألك المسلمين نصراً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه.

وإنى لأرجو - إن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيتك، فإن صلامتهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم، والتطالع فيما اشتبه من الحقوق عليهم. وكتبتك لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحفيظ على ما سألت عنه، مما تزيد العمل به إن شاء الله. فوفقاً لك لما يرضيه عنك، وأصلح بك ، وعلى يديك.

الهوامش :

وإذا قاتم فاعدلوا

بِقَلْمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُسْلِمٍ الْأَزْدِيِّ

إن أهمية هذا الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق وجامع الكلمة، والمؤلف بين القلوب، لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد هو الظلم والاعتداء وفقدان العدل والإنصاف. ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين سواء منها الفردية أو الجماعية ستزول وتحل بإذن الله.

وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء إما الجهل وإما الظلم، فالجهل علاجه العلم ، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط . ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله - كثيراً ما يرجع أسباب الفرقـة والتـعـدي والتـعـصـب إلى الأمـرـيـن المـذـكـورـيـن سابقاً ، فـتـراـهـ يـقـولـ: "الإنسـانـ خـلـقـ ظـلـوـمـاً جـهـوـلـاً ، فـالـأـصـلـ فـيـهـ عـدـمـ الـعـلـمـ ، وـمـيـلـهـ إـلـىـ ماـ يـهـوـاهـ مـنـ الشـرـ ، فـيـحـتـاجـ دـائـماً إـلـىـ عـلـمـ مـفـصـلـ يـزـوـلـ بـهـ جـهـلـهـ وـعـدـلـ فـيـ مـحـبـتـهـ وـبـغـضـهـ ، وـرـضـاهـ وـغـضـبـهـ ، وـفـعـلـهـ وـتـرـكـهـ ، وـإـعـطـاهـ وـمـنـعـهـ ، وـأـكـلـهـ وـشـرـبـهـ ، وـنـوـمـهـ وـيـقـظـتـهـ ، وـكـلـ مـاـ يـقـولـهـ وـيـعـمـلـهـ يـحـتـاجـ فـيـهـ إـلـىـ عـلـمـ يـنـافـيـ جـهـلـهـ ، وـعـدـلـ مـاـ يـنـافـيـ ظـلـمـهـ ، فـإـنـ لـمـ يـمـنـ اللـهـ عـلـيـهـ بـالـعـلـمـ الـمـفـصـلـ وـالـعـدـلـ الـمـفـصـلـ ؛ وـإـلـاـ كـانـ مـنـ الـجـهـلـ وـالـظـلـمـ مـاـ يـخـرـجـ بـهـ مـنـ الصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ ، وـقـدـ قـالـ تـعـالـىـ لـنـبـيـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمــ بـعـدـ صـلـحـ الـحـدـيـبـيـةـ وـبـيـعـةـ الرـضـوانـ: ((إـنـاـ فـتـحـنـاـ لـكـ فـتـحـاـ مـبـيـناـ)) إـلـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ ((وـيـهـدـيـكـ صـرـاطـاـ مـسـتـقـيـماـ)) ، فـإـذـاـ كـانـ هـذـهـ حـالـهـ فـيـ آخـرـ حـيـاتـهـ أـوـ قـرـيـباـ مـنـهـاـ فـكـيـفـ حـالـ غـيرـهـ" أـهـ (1ـ).

ويقول رحمة الله:

والعدل هو الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب ، كما أن الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه ، والظلم خلاف العدل ، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها ، فصلاح القلب بالعدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم والمظلوم ، كذلك إذا عدل فهو العادل والمدعول عليه ، فمنه العمل ، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر ، قال تعالى: ((لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ))

إلى أن قال في نفس الجزء ص ٩٩:
"مع أن الاعتدال المحسن السالم من الإخلاص لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل ، فهكذا صحة القلب
وصلاحه في العدل ومرضه من الزيف والظلم والإعراض والعدل المحسن في كل شيء متغدر علمًا
و عملاً ، ولكن الأمثل فالأمثل . ولهذا يقال: هذا أمثل ، ويقال للطريق السلفية: الطريقة المثلى .
وقال تعالى: ((ولَن تَسْتَطِعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)) [الأنعام ١٥٢] وقال تعالى:
((وَأَوْفُوا الْكَيْنَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا)) ، والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب

ليقوم الناس بالقسط. وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس. أهـ (٢).

وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بين أهمية العدل ، وأنه أساس النجاة في الدنيا والآخرة ، وقد قسمه حسب الأهمية إلى أعظم العدل وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث.

وقد ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة حيث يقول:

"أهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم-، ولا يبتعدون، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم- عذره.. إلى أن قال: والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "القضاة ثلاثة. قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة ، رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة" ، وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى: ((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُوَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا)) وقال تعالى: ((قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمُ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) وامر بالعدل على أعداء المسلمين فقال تعالى: ((كُونُوا فَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقُسْطِ وَلَا يَجْرِمُنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا هُوَ أَفْرَبٌ لِلتَّقْوَى))" (٣).

إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبيّن لنا أهمية العدل في القول والعمل وأن الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال وأشدقن منها لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل ، وبأن يتغلب على صفة الظلم بالعدل والإنصاف ، ومع ذلك - كما أشار شيخ الإسلام - فلن يستطيع أن يكمل العدل كله ولا أن ينفك عن الجهل كله ، وكذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويعفر له تقصيره وضعيته ، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس:

الصنف الأول: المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل ، والعدل المنافي للظلم ، فاستحقوا من الله عز وجل أن يتوب عليهم ما لم يستطعوا تحقيقه من العلم والعدل.

الصنف الثاني: أولئك المشركون المنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموا ، وأعرضوا عن العدل والقسط فأركسوا في ظلمات الجهل والظلم ، ووقعوا في الشرك والنفاق فاستحقوا العذاب الأليم. يقول الله تعالى: ((إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)) [سورة الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعنهم على حمل الأمانة وغفر لهم تقصيرهم.

تعريف العدل و منزلته في الكتاب والسنة:

قال في لسان العرب: العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور. عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول.. وفي أسماء الله الحسنى (العدل) وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم. والعدل: الحكم بالحق. وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه:

إن العدل على أربع أنحاء: العدل في الحكم ، قال الله تعالى: ((وَإِنْ حَكَمْتَ فَاخْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)) ، والعدل في القول ؛ قال تعالى: ((وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُلُوا)) ، والعدل في الفدية ؛ قال تعالى: ((لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ)) ، والعدل في الإشراك ؛ قال تعالى: ((ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)) ، أي: يشركون. وفلان يعدل فلاناً: أي يساويه ، وعدل الموازين والمكابيل: ساواها ، وتعديل الشيء: تقويمه ، والاعتدال: توسط حال بين حالين في كم وكيف ، قوله: جسم مععدل ، من الطول والقصر ، وجو مععدل، من الحر والبرد.. الخ ، والمعادلة. الشك في أمرین ، يقال: أنا في عدال في هذا الأمر ، أي: في شك منه ألمضي عليه أم أتركه. أهـ (باختصار).

والأيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل والحت عليه والتحذير من ضده كثيرة جداً لكننا نقتصر على بعضها مع نقل أقوال علماء التفسير والحديث حولها.

الأيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى:

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ((شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) [آل عمران: ١٨].

* يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى ((قائِمًا بِالْقِسْطِ)) ج ١٤ ص ١٧٩ بقوله:

"فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعتته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم منافق للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل". (٤)

* ويعمل سيد قطب - رحمه الله - على هذه الآية في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٥٥ بقوله: "وتذير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبيس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر.. لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس وبينه في كتابه وإن فلا عدل ولا قسط ولا استقامة ولا تناسق ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع".

إلى أن قال - رحمه الله - في الصفحة نفسها

" وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور. ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة أو طبقة أو ظلم أمة لأمة أو جيل لجيل. وعدل الله عز وجل وحده هو المبدأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد ، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ((لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)). أهـ (٥)".

الآية الثانية:

قوله عز وجل: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلْوَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوَ الْوَالَّدُّينِ وَالْأَقْرَبُّينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَنْتَبِغُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَنْتُلُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)) [سورة النساء: ١٣٥].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمalaً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه

صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ، يقول: (شُهَدَاءِ اللَّهِ) كما قال تعالى: ((وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ))، أي: أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا ، خالية من التحريف والتبدل والكمان ، ولهذا قال: ((وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُم))، أي: أشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه ، قوله: ((أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ)) ، أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرباتك ، فلا تراغهم فيها ، بل أشهد بالحق وإن عادضرر عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد. قوله: ((إِنْ يَكُنْ غَنِيًا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا))، أي: لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما. قوله: ((فَلَا تَتَبَعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا))، أي: لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان كما قال تعالى: ((وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى))، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم - على أهل خير يحرص عليهم ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرثوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من أحب الخلق إلى ولأنتم أبغض إلى من اعداكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض " اهـ (٦).

ويعلق سيد قطب (٢٥٤٩) على الآية نفسها بقوله: "إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال. القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفي هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأبعد ، ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء والفقرااء ..

والمنهج الرباني يجند النفس في وجه ذاتها وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أو لا ((ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُم)) وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان ... " إلى أن قال: "ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية .. أو الاجتماعية حين يكون المقصود له أو عليه فقيراً تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه. أو من يكون فقره مداعة للشهادة ضده بحكم الرواسب الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية ، وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده..

الأية الثالثة:

قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا فَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقُسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [سورة المائدة: ٨].

يعلق سيد قطب - رحمة الله - على هذه الآية بقوله:

"لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، وهابهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ، وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقف عنده ، تتجاوز إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض.. إلى أن قال - رحمة الله تعالى -: (إِنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَرْتَقِي هَذَا الْمَرْتَقَيْ) فقط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل حين تقوم الله متجردة عن كل ما عاده ، وحين تستشعر تقواه وتحسُّ أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور) اهـ باختصار (٧).

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ((وإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا فُرْبَى)) [الأنعام: ١٥٢].

يعلق سيد قطب - رحمه الله - على هذه الآية فيقول:

(وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداءً - إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته.. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ، الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل وفي قوة القرابة سند لضعفه وفي سعة رقتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابتة حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس ، وهذا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده ، إكتفاءً به من مناجزة ذوي القربى وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد)(٨).

أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل وتجنب الظلم والبغى فكثيرة جداً نقتصر على بعضها:

الحديث الأول:

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أنه قال: (نحاني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضي حتى تشهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، فجاءه ليشهد على صدقتي فقال: أكل ولدك نحلت مثله؟ فقال: لا. فقال: اتقوا الله واعدولوا في أولادكم ، وقال: إني لا أشهد على جور. قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة)(٩)

الحديث الثاني:

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين اثنين صدقة "(١٠).

الحديث الثالث:

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: (بأيعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في: العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وعلى أن لا ننزع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كان ، لا تخاف في الله لومة لائم) وزاد النسائي: (وعلى أن نقول بالعدل أين كنا)(١١).

ال الحديث الرابع:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن - وكلنا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا "(١٢).

ال الحديث الخامس:

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يدعو بهذا الدعاء: " اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيمًا لا ينفد ، وقرة عين لا تنتقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة

النظر إلى وجهك ، وأسئلتك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ولا فتنه مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين " (١٣) .

أقسام العدل:

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية:

١- أعظم العدل:

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ، وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل: ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَنُهُمَا لَا يَعْبَدُونَ) (٣٨) [الدخان: ٣٩ - ٣٨]. وقال تعالى: ((مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَنُهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُسَمٌّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنذِرُوا مُعْرِضُونَ) [الأحقاف: ٣].

ويقابل هذا القسم من العدل: أعظم الظلم ، وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال الله عز وجل: ((وَإِذْ قَالَ لِقُمَّانٍ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُهُ يَا بُنَيٍّ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: ١٣]. ومثله قول الله تعالى: ((الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام: ٨٢]. وقوله تعالى: ((وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [سورة البقرة: ٤٥].

٢- العدل مع النفس:

ويدخل في هذا العدل: قيامه بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل: ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما حرم الله عز وجل - مما هو دون الشرك - ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره ، وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب منه فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المishiئه ، بينما الظلـم العظيم - وهو الشرك بالله - لو مات عليه فلن يغفر له ، كما قال تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنِ يَشَاءُ) [النساء: ٤٨]. وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنـه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها.

٣- العدل مع العباد:

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمـنا في هذا البحث ، والقـسمان السابـقان ليسـ هنا موضع تفصـيلـهما ، ويقابل هذا القـسم من العـدل ظـلمـ العـبـادـ واعـتـداءـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ ، سـوـاءـ فـيـ القـوـلـ أوـ الفـعـلـ، وـسـنـذـكـرـ فـيـ هـذـاـ القـسـمـ إـنـ شـاءـ اللـهـ - بـعـضـ مـقـضـيـاتـ وـلـواـزـمـ هـذـاـ العـدـلـ، مـعـ إـشـارـةـ فـيـ أـثـنـاءـ ذـلـكـ إـلـىـ بـعـضـ المـوـاـقـفـ الـمـؤـسـفـةـ الـتـيـ تـتـافـيـ الـعـدـلـ وـالـإـنـصـافـ، مـعـ ذـكـرـ الـمـنـهـجـ الشـرـعـيـ الـذـيـ يـنـبـغـيـ سـلـوكـهـ حـيـالـ هـذـهـ الـمـوـاـقـفـ.

ويحسنـ بـنـاـ قـبـلـ ذـكـرـ هـذـهـ الـلـواـزـمـ أـنـ نـقـدـ لـهـ بـكـلامـ نـفـيسـ لـإـلـمـامـ اـبـنـ الـقـيـمـ - رـحـمـهـ اللـهـ - فـيـ مـارـاجـ السـالـكـيـنـ حـولـ (مـنـزـلـةـ الـخـلـقـ). يـقـولـ - رـحـمـهـ اللـهـ -: (وـحـسـنـ الـخـلـقـ يـقـومـ عـلـىـ أـرـبـعـةـ أـرـكـانـ، لـاـ يـتـصـورـ قـيـامـ سـاقـهـ إـلـاـ عـلـيـهـ: الصـبـرـ، الـعـفـةـ، الشـجـاعـةـ، الـعـدـلـ).

فالـصـبـرـ: يـحـمـلـهـ عـلـىـ الـاحـتمـالـ، وـكـظـمـ الـغـيـظـ، وـكـفـ الـأـذـىـ، وـالـحـلـمـ، وـالـأـنـةـ، وـالـرـفـقـ، وـعـدـمـ الطـيشـ وـالـعـجلـةـ.

وـالـعـفـةـ: تـحـمـلـهـ عـلـىـ اـجـتـنـابـ الرـذـائـلـ وـالـقـبـائـحـ مـنـ القـوـلـ وـالـفـعـلـ، وـتـحـمـلـهـ عـلـىـ الـحـيـاءـ، وـهـوـ رـأـسـ كـلـ خـيـرـ، وـتـمـنـعـهـ مـنـ: الـفـحـشـاءـ، وـالـبـخـلـ، وـالـكـذـبـ، وـالـغـيـبـةـ، وـالـنـمـيـةـ.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والنوى ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ، ويكتبها بلجامها عن النزع والبطش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب " ، وهو حقيقة الشجاعة ، وهو ملكة يقدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرف الإفراط والتفرط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة ، الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة ، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب.
فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.
والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغصب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام ، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتت في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع.
والشهوة: تحمله على الحرث والشح والبخل ، وعدم العفة والنهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها.
والغضب: يحمله على الكبر والحق والحسد ، والعدوان والسفه.

ويترکب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة. وملك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة فيتولد في إفراطها في الضعف: المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرث ، والشح وسفاسف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش.
ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالأخر أولاد غيّة كثيرون. فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً. فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قهر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قهر صار أذل من امرأة: جبان عن القويّ ، جريء على الضعف. فالأخلاق الذمية: يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتفٌ بخلقين ذميين وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميين ، كالجود: الذي يكتفه خلقاً: البخل والتبذير. التواضع: الذي يكتفه خلقاً: الذل والمهانة والكبر والعلو (١٤).

* يتبع

الهوامش:

- ١ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨,١٤
- ٢ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٨,١٠
- ٣ - المصدر السابق ، ٩٦,١٦
- ٤ - مجموع الفتاوى ١/٥٥ ، ١٧٩, / ٤
- ٥ - في ظلال القرآن ٥٥/١ ط. دار المعرفة اللبنانيّة.
- ٦ -- تفسير ابن كثير ٢١٤/٢ ط. دار الفكر.
- ٧ - في ظلال القرآن ٦ / ٦٦٧,
- ٨ - في ظلال القرآن ٤٢٦,٨
- ٩ - فتح الباري ج ٥ ، رقم الحديث ٢٥٨٧ ، ط. السلفية.

- ١٠ - المصدر السابق ، رقم الحديث ٢٧٠٧.
- ١١ - صحيح البخاري ١٦٧/١٣ باب كيف يباع الناس ، النسائي ٣٧/٧ في البيعة على السمع والطاعة.
- ١٢ - مسلم ٢٨٢٧ (الإمارة) باب فضيلة الإمام العادل.
- ١٣ - سنن النسائي ، شرح السيوطي وحاشية السندي ٥٥/٣ باب الدعاء بعد الذكر ، ط. دار إحياء التراث.
- ١٤ - ج ٢ ، ص ٣٠٨ من مدارج السالكين تحقيق محمد حامد الفقي ، ط. دار الكتاب العربي.

أدب وتاريخ وكسرت رمحى...

شعر: علي محمد

بكـت الـديـار لـفـرقـة الأـحـباب
وـغـدا التـشـرد خـبـزـنا وـطـعـامـنا
يـا طـيـب خـبـزـ الفـارـسـ الجـواب
هـذـا يـدـرس فـي الـخـلـيجـ وـغـيرـه
يـسـعـى وـيـطـرقـ أـبـعـدـ الـأـبـوـابـ
حـتـى إـلـى الـأـفـغـانـ شـرـقـ نـجـمـناـ
وـأـضـيـء لـيـلـ الغـربـ بـالـأـغـرـابـ
وـبـقـيـت وـحـدـيـ لـا أـبـأـ لـكـ حـائـرـاـ
أـغـدو إـلـى النـسـمـاتـ أـسـأـلـ بـعـضـهـاـ
عـلـ النـسـائـ قـاـبـلـتـ أـحـبـابـيـ
وـأـسـائـلـ الرـكـبـانـ عـلـ مـسـافـرـاـ
يـشـفـي الـغـلـيلـ بـجـمـلـةـ وـجـوـابـ
بـيـ رـغـبـةـ فـيـ أـعـيـشـ هـمـوـكـمـ
وـأـبـثـكـمـ هـمـيـ وـسـرـ عـذـابـيـ
فـلـقـدـ خـرـجـتـ مـنـ الـكـانـةـ ضـائـعـاـ
وـأـضـعـتـ فـيـ أـرـضـ الشـامـ قـضـيـتـيـ
وـكـسـرـتـ رـمحـيـ فـيـ رـبـيعـ شـبـابـيـ
وـغـرـاسـ دـعـوتـيـ الـحـبـيـبـةـ أـوـدـعـتـ
وـعـلـىـ ذـرـىـ لـبـنـانـ ثـمـةـ شـاهـدـ
وـيـدـوـسـنـيـ عـلـجـ وـأـزـعـمـ أـنـهـ شـهـمـ
أـمـشـيـ وـيـتـبـعـنـيـ الـهـوـانـ وـدـمـعـتـيـ
وـلـقـدـ تـرـكـتـ العـزـ عـزـ مـحـمـدـ
وـغـرـقـتـ فـيـ لـبـسـ الـأـنـيـقـ وـغـرـنـيـ
أـنـسـىـ عـدـاءـ الـمـجـرـمـينـ سـيـاسـةـ
لـلـظـالـمـينـ تـحـيـتـيـ وـمـودـتـيـ
هـذـاـ جـحـيمـ لـاـ يـطـاقـ وـمـنـطـقـ
إـنـ الـذـيـنـ تـذـوقـواـ طـعـمـ الـهـدـىـ
سـيـوـحـدـونـ صـفـوـفـهـمـ لـيـنـورـواـ
دـرـبـ الـحـيـاةـ بـسـنـةـ وـكـتـابـ